جسد في ظل

عبد النبي فرج

وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه

قران كريم

" كل نفس بما كسبت رهينة "

قران كريم

القسم الاول

الإهداء

إلى أبي

عايدة يوسف

(١)

أراها كائنًا خرافيًّا رابضًا في جلالٍ ورهبة.. هي السرايا يحيطها سور عالٍ قديم به فجوات وبوابة حديدية هائلة، يسكنها الأغوات السود، والبنت الجميلة التي ترتدي خمارًا وثوبًا كحليًّا غامقًا وسلسلة من الذهب ، تنتهي بهلال ثقيل مرسوم عليه أفعى، تسير في مهابة وعزة ، ترنو إلى كلما أتت عندي في الدكان أو مرت على وهى في طريقها إلى المقابر، يسير وراءها عيال سود "مقلبظون "يرتدون ملابس بيضاء ، على رؤوسهم سلال بها، قرص، فواكه، عيش.. ويقال: إنها تظل تطلق أصواتًا غريبة قرب مقابر تخص أسرتها دون أن يفهم أحد شيئًا . كان الأهالي يخافون منها ويتجنبونها باعتبارها لها علاقة أخوية بالجن تسخرهم في أذى أهل البلدة، وكل مريض وعاجز عن ممارسة الجنس يتهمها بأنها السبب حتى إنه كان هناك اقتراح لعمل وفد من أعيان البلدة لكي يطلبوا منها التوقف عن أذى أهل البلدة في مقابل مبلغ من المال يدفعونه لها كل موسم، ووافق معظم أهالي البلدة حتى بصق الشيخ عبد النعيم وقال: أنا أحميكم منها. وقرأ آيات الكتاب وجعل الطوب يضرب بعضه ويتكسر بعضه ويبكي . ساعتها أمنت البلدة بقدراته الخارقة وأحسوا بالأمان لأول مرة منذ فترة طويلة ولذلك ساروا وراء الشيخ عبد النعيم، وأصبح هو وكيل الجان في الأرض والحامي للبلدة من الشريرة.

المهم... عين خضراء تجرحني وتخرجني من كينونتي.. وتخايلني طوال الوقت وتفسد علاقتي بالمال والزبائن، وكأنني مشدود إليها بقوة خفية .

الآن اذهب إليها في السرايا بعد أن أرسل لي الخال رسالة محددة، الخال في انتظارك التاسعة مساء ولا أعرف ما الذي يريده مني؟ هل يريد أن يأخذ مني بالأجل؟ وما الذي أفعله لو ظل يسحب إلى أن أفلس الدكان؟ وهل بمقدرتي أن أمتنع عن إعطائه بالأجل، وهل ممكن مطالبته لو تأخر على في الدفع .

كنت حائرًا ورأسي يدور بهواجس تكادُ تصل بي للجنون، أرجع وخلاص.. وإيه يعني.

" ديك أم عايدة .."

أخرب بيت نفسي عشان بنت شرموطه بنت كلب، أنا عارفها بنت ولا مره ولا إيه؟ إيه المصيبة السوده اللي جت على دماغي، أرجع.. ؟

توقفت عن السير.

أنا عارف عندي وسواس ويمكن ما يكنش فيه حاجة أساسًا من اللي بفكر فيه، يمكن ناس كويسة، مش معقول الناس دي تبقي وحشة، شكلهم حلو وحديث عايدة ينم عن أصول رفيعة، طيب لو طلع كل ده أوهام ووسواس قهري؟، يبقى ضيعت فرصة "عايدة" واحة حياتك المجدبة، أنا ممكن لو طلب مني شكك أقول: أنا معايا شركاء، بس هتبان صغير ومتردد ومنتش شخص يعتمد عليه، وهيقولوا بتهرب .

كانت مخيلتي ترسم للخال صورة شرير لا أعرف لماذا؟ أنا مشوش، طيب يا ترى ما الذي قالته عني عايدة؟ كنت حذرًا بطبيعتي ولا أنتظر من الآخر سوى الغدر ولكن محبتي لعايدة وأمنيتي أن استحوذ على كل هذا الجمال جعلتني أغامر بالذهاب، وأنا أتوقع أن أسمع منه ما يجرحني، أن تكون عايدة قالت له إنني أغازلها ويريد أن يهينني ويعرفني مركزي، وأن عايدة سليلة الحسب والنسب والأصول الممتدة في التاريخ لا يمكن أن تتزوج ببقال مثلي،

نفضت بقوة الهواجس ورددت: أنا كاتب.

ولكن المشكلة أنني ليس لي سند من هذه الهواية العجيبة التي جلبت لي الشرور أكثر من أي شيء آخر، وعطلت مهنتي التي أتكسب منها ولذلك كل من فتح دكانا استطاع أن يبني بيتًا ويشترى أراضي زراعية، ويستمتع بما لذ وطاب وأنا الوحيد الذي أقف محلك سر، نفس الملابس الرثة، نفس الأكل نفس الشرب، لا جديد. بقال بلا إنجازات تذكر..

ما الذي يمكن أن أقوله أو أسرده عني يعتبر مزايا... أن أقول مثلا: إنني شاب مكافح وإنني لدى طموح... ضحكت وأنا ممرور، يعني لو أنت ارتديت جسد ووسامة محمود ياسين أو حسين فهمي.. المشهد يكون بالفعل مؤثرًا وستخرج ببعض الألم والنبل الإنساني من موقف تراجيدي أما بهذا الشكل فسينقلب المشهد لكوميديا الفارس المبتذلة التي تضحك طوب الأرض .

الليل حجَّم عيني، تحركت بقوة القدر وبقوة الخيال المريض الذي أغوص فيه بقوة جرار . تركت البلدة ورائي والخلاء خلق لي كائنات هلامية.. هل كنت أغنى؟ وتوقفت وأنا أرى السرايا تتفكك وأنا أهم بدخول الممر الذي يؤدى إلى الباب وخرجت منه جنيات مسحورات.. يسرن زحفًا حتى أحطن بي، كائنات بشعة وهلامية والنور الذي اندفع من عيونهن أضاء لي المكان.. حلقي.. جف عين واحدة متتالية تميزهم، وشعر أسود كث يغطي جسمهم، وفم غوريلا وأسنان من القصدير... الصراخ لم يعد يجدي. أنت ميت، صوت يقيني وقاس ينير لك المستقبل.. أرى أمي وأنا أجزاء متناثرة تضع يديها على خدها ودموعها تسيل ورجف لجسدها لا ينتهي.. هل من آخر هل أنا أخوض في مدارات كافكا الكابوسية، أم أنني في وأقع على اجتيازه بقوة . وعندما تقدمت واندفعت بقوة الغريزة كسهم مخترقًا الحصار البشع الذي تمزق وكأنه ستار

عنكبوتي ضعيف، غشاء رقيق لم يكن في احتياج إلى كل هذه القوة التي استخدمتها حتى كدت أسقط على وجهي ووترتني، وصلت إلى الحديقة، .. دفعته الباب الضخم المصنوع من الحديد الثقيل بعنف فأصدر شرخًا أربكني وجعلني أوقف زحفه... وأمر بجانب جسمي وأسير في الحديقة مصوبًا عيني في اتجاه واحد متحاشيا النظر إلى أولاد آوى... الفئران... الحيات الراقدة، في جوار جذور أشجار الكافور... الجوافة... الكازورين التي تحيط بي، تطل وكأنها ترصدني وتتحين الفرصة للانقضاض على. جربت وصعدت درج السلم محاولاً أن أبدو كرياضي وأخذت أدق الجرس في عنف إلى أن فتحت لي الباب امرأة عجوز ضامرة تحمل بيدها فانوسًا وفي يدها الأخرى سلسلة مفاتيح عتيقة مرسوم عليها جعارين وصلبان وزهرة اللوتس وهلال..

أخذت تدعوني بالدخول وأنا مرعوب من فمها الخالي من الأسنان ولسانها الأحمر ووجهها الذي ينز منه سائل يشبه الشمع يقطر على جلبابها الذي تراكم حتى شكل قبابًا

أخذت أنظر إلى الرسومات المحفورة على الباب العتيق؛ رسومات غريبة تتداخل فيها هويات كثيرة جدًا حتى عجزت عن تحديد هويتها، .. كنت خائفا من ألدخول وكأنني ارتديت قميصًا من الجبس الذي خنق روحي حتى امتدت يدها نحوي وشدتني من ذراعي، وسارت بي في البهو الواسع وبدت الكراسي المذهبة المصفوفة مغبرة وممزقة وقد تناثر قش الأرز على البلاط، والسجاد متراكم والشمعدان والنجف ينير إنارة باهتة بفعل كمية الأتربة التي تلتصق باللمبات.. ثم صعدت بي إلى أن انتهت إلى الطابق الثاني، ودقت على الجرس ثم تركتني ونزلت إلى الدور الأرضي دون أن تقول كلمة، فتح لي الباب فدخلت وجدت الخال في مواجهتي يرحب وكأنه يعرفني من مدة، خجلت ولم أجد شيئًا أقوله سوى أن أبتسم ابتسامة باهتة:

أهلاً.. أهلاً.. إزيك يا أستاذ.. يا مرحبا.. كان ضوء الصالون مبهرًا والشقة تبدو مرتبة وأنيقة، بساط من السجاد الفاخر.

جلست على الكرسي وأخذت أنظر إلى الصور التي ملأت الصالة وباقي أجزاء الشقة الظاهر لي.. فرسان على خيول مطهمة، باشاوات، في لوحات قديمة توحي بتوغلها في الزمان جلست على الكرسي نساء يرتدين قبعات عليها ريش، وأثواب فرنسية الصنع، أغوات، عبيد، جمال تسير في صحراء ممتدة بلا نهاية، خناجر، أفاع محنطة ومصلوبة، كرابيج، لوحة بالخط الكوفي " قل هو الله أحد... صور الجبال ممتدة يغلب عليها النور، أيقونة للعذراء.. مسلة. وكأن هذه الحيوات الكثيرة التي تحيط بك لا تحتاج إلا إلى أن تخرج من توابيتها لتهجم عليك. أنهكت وكأنني داخل صراع مميت مع أنني طوال عمري أهرب من الصراع، أريد أن أحتفظ بكل شيء داخلي كما هو.. دون أن يمس فأنا لو مست ذاتي الوارمة أصلاً ستكون نهايتي.. ولذلك فإن المغامرة

بالنسبة لي نوع من الجنون. ولذلك اعتقلت ذاتي بين الدكان وتعاسته التي لا تحتاج بالتأكيد إلى شرح لأن الشرح في تلك الحالة مش مفيد يكفي الغم الذي أنا فيه الآن... جلست أنتظر...

يا مرحبا داحنا في غاية السعادة بوجودك معانا الليلة ثم أخذ يطبطب عليَّ حتى تصورت أنه يسخر مني أصبت بمرارة ويأس قاتم وقد نبت عرق خفيف على جبهتي

- أهلاً بيك أنا خايف أكون أزعجتك

- لا يارجل... إزاي دا حتى ست عايدة بتشكر فيك

- عايدة ؟!

- آه.. بنت أختي...

- عايدة ذات العيون الخضراء والصوت الهامس الناعم، والتكوين الدقيق بنت أخت الخرتيت مجدور الوجه؟!

تركني ودخل إلى عمق السرايا، ثم عاد وفي يديه صينية من الفضة وعليها كوب عصير برتقال أخذ ت أنظر إلى رأسه الأصلع الممتد كنمس البطيخ وعيونه الجاحظة حتى انتابتني موجة من الضحك كتمتها وأنا اهتز.

برق خطف قلبي، وهي مندفعة تجري في مواجهتي حتى تحققت مني فتراجعت مرة أخرى بنفس القوة التي دخلت بها....

- تعالي تعالي يا عايدة.. دا مش غريب. لم تأت عايدة وهو ينادي حتى أحسست بالحرج..

- خلاص يا حاج سيبها براحتها.

- أصل هي خجولة خالص.

أظل أنصت لكلامه وعيني في عينه بعد أن أدرت وجهي ناحيته، ورغم ذلك أسرح في مكان آخر حتى يتوه مني خيط الكلام وعندما أنتبه على صوت أتصور أن الذي أمامي ليس الخال بل شخص آخر أو أن داخله شخص يتكلم بدلاً منه وعندما التفت يصدمني وجهه الأصفر المميت الذي ينظر لي في حياد كامل، حرت وبدوت ما بين الخوف والقلق والرغبة . هل يريدني أن أخرج؟. سكنت وابتعدت بنظراتي تجاه الحائط. ماذا يدور في ذهنه؟ أتيت من أجلها؟ وفي حماس مفاجئ أتكلم عن الجنة والنار والحساب يوم القيامة والعفة والأخوة المفتقدة. وأشاور بيدي حتى أن عيني كانت تغزوها الدموع مع أنني أتألم بعايدة.. ثم سكت فجأة أيضا..

تركني وفتح سحارة بجوار الحائط وأخرج منها نايًا قديمًا وجلس جواري وأخذ ينفخ فيه.. وصوت الناي يخرج خافتًا ومرتجفًا لم يكن نافخًا محترفًا ورغم ذلك بلغ تأثير صوت الناي علي كما لم يبلغه أي عازف محترف، كنت أرتجف من قسوة الصوت ووجهه انقلب وكأنه جزء من الناي وكأن الناي خلق وجهًا حتى استغرق في العزف

وتحول صوت الناي إلى أنين يشبه البكاء، ألم خالص أو عبودية خالصة، ارتجف لها جسدي، ينفخ وعروق رقبته تكاد تنفجر حتى أنني جرى لي ما يشبه الغيبوبة من التعب المضني حتى أنني لم أرها وهي تلبد جوار الخال وعيناه تجوس في المكان وكأنها لا ترى أحدًا

خلعت الخمار فبدا وجهها منيرًا وموردًا وبديعًا وبدت شفتاها مكتنزتين وحمراوين ثم وقفت وبدت تدور حافية وتنتقل في رشاقة فراشة حول مركزها.. ثم نزعت غطاء الرأس وتدفق شلال من الشعر الأصفر تناثر على وجهها وظهرها وهي تتمايل وتهتز على صوت الناي، والضوء يخفت والحجاب ينزلق عن ثوب شفيف ملتصق بالجسم الذي عرق فبدا النهد والأرداف، السيقان، السرة، والخال ترقرق في عينيه الدموع..

يزداد صوت الناي عويلاً وتقطيعًا، وأنا غير قادر على السيطرة على جسدي الذي يرتجف ارتجافًا عنيفًا حتى صرخ الخال صرخة رجت السرايا ومزق ملابسه وبدا كتلة من اللحم الأسود، وخطوط في ما يشبه الكرباج متجعدة وشائهة تسم جسده. يقف في وسط الغرفة وعضوه نواة صغيرة، يسكر كدرويش مجذوب وعيال سود صغار تدخل بالطبل والمزمار والرق يحطن بعايدة وسكرًا سكرًا يشبه الرقص ورقصًا يشبه السكر وقد بدا جسدها العاري يكاد يضيئ .

عايدة يوسف (٢)

شرك منصوب.. وأنت تراه وتعلم أنك لو انتظرت، لو تحايلت قليلاً لانتصرت.. ما الذي جعلك تندفع نحو الفخ؟

أغلق الدكان..

كنت تعلم نقاط الضعف، ورغم ذلك لم تستغلها رغم أن الذين تتعامل معهم قتلة.. يحاولون ابتزاز مشاعرك.. لا تنصت لهمهمات أمك والوكسة التي أنت فيها .

أخرج موسيقى تسري رقراقة في جسد الليل - ليل خئون مراوغ والنجوم الكثيفة تلمع في وميض خاطف فيرتعش القلب.. قمرا يضيئ - صمت أحيها.. أصوات الضفادع تربكني وأنا اقترب من السرايا. وأفكر ماذا أقول؟ ماذا أقدم من تنازلات؟ سلاحف تخرج من تحت الأشجار وتطل برأسها عليَّ وخيالات يضعونها أمامي لكي يستنزفوني.. ورغم ذلك أخرج أسلحتى... أحاربهم.. أخرج أسلحتى وأنازلهم.. أضرب والدم يتدفق وأنا أغوص في نهر من الدم.. حتى أصل... روحي منهكة.. وأعلم أنني لن أراها، وأن الأم ستلبد بجوار الخال وتروي حكايتها الخرافية عن عايدة وأن أحد العرافين، وكان قد ضربه الزمن عندما رأى عايدة اقترب منها - وكأنه تذكر شيئًا - فتح يديها وهمس إليها: البنت مكتوب لها الملك.

قال ذلك ثم سار..

وأسمع همس عايدة وضحكتها الرائعة التي ترقرق في السرايا. والخال يجلس أمامي يقرض في أظافره بفمه.. ويرحب بي ويصلي ويبتهل إلى الله بصوت عال.. ثم يستغرق في التسبيح حتى انتهى.. ونظر إلى داخل السرايا.

- يا سلام يا عايدة إزاي يا بنت تلبسي قميص نوم بس.. داحنا في الخريف.. أنت مش خايف من البرد

- أنا بموت في الشتاء يا خالو.... كمان أنا أتعودت على كده

أقف أحدق في الخيالات القائمة أمامي.. أتقدم.. طيفها يرتفع في غلالة رقيقة بيضاء تحجب عني وجهها الوضي وجمالها الرائق، وأنا مدفوع نحو طيفها الذي يرتفع في السماء...

غارق في البرية الموحشة وبي صرة من مرارة ترجني.. أما من نهاية؟ أما من آخر. الزمن يمر وأنا في الثلاثين، وروحي متعبة وبي رغبة أن أعيش حياتي، وأنا أنزع عني قميص الجبس الذي وضعوني فيه وسيروني في طريق واحد، اتجاه واحد، لا رجوع فيه .. أنت خاسر.. انسحب.. ستخرج من الحرب خالي الوفاض بلا شيء.. أنت قاعد ليه؟ هل قراءتك للشعر والقصص جعلتك تنفصل عن الواقع وتضع على عينيك غلالة لا ترى

شيئًا إلا عالمًا ورديًا حالمًا.. وموسيقي ذات نفير تربك فوضي جسمك. إيه ياد.. بطل فكرة الاستشهاد.. وانس حكاية الخمرة اللي طالعة في دماغك قوم أعلنها واضحة قاطعة بأنها ليست طيفًا.. ليست خيالاً.. بل لحمًا يغريك بالدوران حوله، جسدٌ أبيض خالص له أسر بديع مركز في شفاه تكتنز قطعة من جمر، تتألف وسط وجه بديع.. وأنت تنزل ببطء وراحة وتمص شفتها في مهل وتستحلب ريقها وهي تغمض العينين، تسمع صوتا لينًا لطيفًا.. بس كفاية الشفة اللي فوق وتتركها ينزف الدم منها. أغلق النافذة

دع الفراشة تسمم غيرك.. تحلم ببحر، زورق.
توقف على تتبع دقات قلبك
هي عايدة.
تقف على قبة الروح.
أطلق لحيتك إذن.
ما زالت لك رغبة.

أخذت أجري في الحقول، لعلني ألحق أي شيء حتى تعبت وكلت قدماي فظهر لي رجل كقطعة من الطين، يجلس تحت شجرة توت شائخة تساقط الورق من عليها، شيخ طاعن له لحية من هشيم هاشَ، و له عين متقدة جلباب ممزق على العري نحيل يكَاد لا يبين.. اقتربت منه وأنا خائف ألقيت عليه السلام .. لم يرد.. ثم أخذ يحكي لي عن طفولته البائسة وحياته التعسة.. ويحكي وبه نبرة فرح وكأنه يتلذذ بالألم الخالص حتى استحضرت آلامي ، وأصبحت كأنني جزءاً منه وكأننا اختلطنا أنا داخله وهو داخلي حالة سيولة يوحدنا الألم أشعر به يتآكل من الداخل حتي تحشرج صوته وبدا كصوت قطة أكلت أولادها وأخذ يلوح في الهواء وكأنه يحارب مجهولاً.. وخيل لي أن الرجل يتحول ببطء إلى شكل قطة.. الوقت مر والسماء تلونت بلون الدماء.
نظرت إلى الرجل لم أجده.

.....

ادّعِ أنك محب، وأنك مريض لكي تنتمي بجدارة للرومانتيكي الذي تريده، ولا تنتظر حلول المساء، اخرج في عز الحر، لا غمامة فوق رأسك تقيك قيظ يوليو، ولا نسمة رقيقة تتبعك، والشجرة التي تحتمي بها تساقط أوراقها، وتدور مع ظلها الشحيح قلقًا.

- لماذا لا تغني مثلا؟ غنّ، كنت تغني بصوتك الأجش قبل أن ترتدي سيمياء الممثل الذي كنته زمان، يوم أن وقفت على خشبة مسرح معهد الفنون المسرحية، وكان عطيل يتلبسك، وكنت غِرًّا، وخضت المأساة حتى انتهى سناء شافع من ارتشاف القهوة، وكان فشلاً ذريعًا، وستعرف بعد ذلك أن سناء كان لينًا معك، وأن أنصاف المواهب سيقطعون عليك الطريق آلاف المرات، وأنت لا تكل أبدا، إيه، أنت نبي، غن أولا، صوتك أجش، أعرف ، المهم أن تغني، كل شيء معد لك، الديكور، الملابس، النص، المسرح، الشاي.

لماذا لا تدخن؟ ادخل واجلس على الكرسي، وضع قدمًا على قدم، وانظر إليهم بنظراتك الوقحة الخالية من الحياء، ولا تلق بالاً للمحبة التي كانت، ولا للمستقبل الذي تراه معها، وأعصابك التي كانوا يرونها تتفتت، أنت لا تحب أحدًا، ولا تقل: إنهم مستنقع، أنت الذي خضت في المستنقع، وتركت لهم الحبل حتى يلتف حول أعناقهم، وبعد ذلك تعلقهم في السَّحَابِ الْمُسَخَّرِ ، أنت نسيت الحبل، كيف يعني أن تحب، أنت تمثل المحبة جيدًا، حتى تأمنهم ويأمنوك، وتدخل الشخوص وتخرج في يسر، غمضة عين، ولم تفاجأ عندما استوقفك الفلكي الطيب في شارع عبدالخالق ثروت، ونظر إلى وجهك في هدوء، وقال: أنت كذاب، ولا يهمك غير مصلحتك، قبض على وجهك في أشد لحظات الضعف، هل انهرت وأخذت تدافع عن نفسك، ثم ابتسمت وأخذت تقهقه، وماله، هل من الممكن أن تخلق شخصية غير شخصيتك يعني لو أن لديك أماني طيبة جدًا وتريد أن تكون الطيبة جزءاً من نسيج شخصيتك هل تستطيع أن تزرعها

بالقوة، هل هذا ممكن؟ أنا أحب مصلحتى وأقولها بصوت عال وأحب الفلوس موت، إيه المشكلة، دا يديني فرصة لأحقق أهدافي بسرعة دون مماحكات وديالو

نجيب من الأول.

قمر صغير ينير الحديقة، وتظهر النباتات الصغيرة وديعة، والنافورة التي في وسط الحديقة تدفع الماء في صرامة وعنف، وأضواء النيون تصطدم بالماء، فيحدث وشيش ناعم لا يبين ، أشجار العنب خالية من الثمار، وأوراقها تتكسر تحت حذائي، ولم يعد لدى سوى قلب ميت، وعين مفتوحة على آخرها، دخلت، كان الباب مفتوحًا، وعندما رفع قامته، ورآني حياني بمودة وألفة كان الخال الذي استغرق في النوم، يحاول أن يبدو سعيدًا في وجودي، ورغم ذلك أرى توتره، وهو يعصر الملابس، ثم وهو يحمل الطفل بيد، والوعاء البلاستيكي على رأسه، ثم عاد ومعه بزازة وضعها في فم الطفل، واحتضنه بقوة.

أنا كنت أكره الأطفال الأول، دلوقت أنا حاسس إن ابني ده حتة مني، والله والله حتة مني.

كان يضغط على أسنانه بقوة، ويدور في الغرفة، ويطبطب على الطفل.

قلت للست الهانم ترضع الواد ألف مرة، مفيش فايدة . دي عايزة تعذبني مع إن المفروض تهديني (وأخذ يضرب على صدره) الحنان، الحنان.

أخذ يروي لي ما جرى له مع زوجته، وكيف أذلوه تماما، وكم الألم والمعاناة حتى أنه في طريقه للجنون، وأنه أصبح غير قادر على الاستغناء عن الموس ، ثم رفع الجلباب وأراني جسده وبدت إليته بها تسلخات وقروح وخراريج حتى أنني لم أعد قادرًا على النظر إليه، ولم أعد أعرف الدموع التي تترقرق أهي في عينيه، أم عيني، حتى دخلت الزوجة، وعندما نظرت إلينا انفجرت في ضحك هستيريّ، ثم اقتربت من الزوج، وأخذت تملس على رأسه (جوزي دا نمس) ثم جلست، ووضعت ساقًا على ساق، تجاهلتها تمامًا، أو حاولت ان أتجاهلها رغم ذلك ظلت عيني تتراقص بين جسمها الشهواني والخال، وأخذت أروي حكاية طريفة تعرضت لها في الدكان، حتى وقف فجأة، وأخذ يزعق في زوجته بأعلى صوته: إنت إزاي يا هانم تلبسي اللبس ده، أنت عايزة تجنني خلاص، إنت شايفاه عمال يبص على جسمك طول الليل.

غرقت في عرق بارد، وأخذْتُ أتهتهُ ، وأقول كلمات لارابط بينها حتي راح الكلام وقد أصبت بمرارة، فسكت. لم أستطع القيام، كان رد فعلي مدهش وكأن الكلام الخارج من فم الخال يخص غيري مش أنا وكأن الإهانة للحوائط كنت باردًا بشكل مدهش وتصورت في لحظة أن هذا البرود هو الذي سيحميني ويجعلني أفوز بعايدة في النهاية وليس على سوى الصبر، وقوة الاحتمال، وعندما تكون في ملكيتي سيتم نسيان كل ذلك وسأحصل على كل المتع والرغبات التي أريدها. أنا أشتهيها فعلا، ولن أسكت مهما طال الزمن حتى أستمتع بكل هذا الجمال المدهش، نسيني الخال أم أنني الذي نسيته حتى انتبهت على كونه يغني ويناغي الطفل وهو سعيد، يدور في الغرف، وأسمع عايدة من داخل البيت تتكلم في التليفون، وبدا صوتها مثيرًا، وكان الطرف الآخر كما عرفت من سياق المكالمة رجلاً وهذا الأمر كان يعذبني بشكل غير متصور، ولكن تجاهلت الأمر كان صوتها يصل إلى درجة التأوه، حتى أنَّ المنيَّ نزل مني في انتفاضات ورعشات قوية، ثم سكنت، طلبت دخول الحمام، فقام وهو يحمل الطفل وسار وأنا وراءه حَتَّى أَرَانِي الحمام وتركني، غسلت نفسي ونظفت مكان المني وغسلت وجهي، ثم خرجت وجلست وحدي، فسمعت صوتًا عاليًا، وجدلاً عنيفا بين الأم وعايدة حتى دخلت الأم عليّ وشعرها الأحمر المصبوغ بالحناء منكوش، وهي تلطم خدها في قسوة، وتدور في الغرفة: أنا حاموت نفسي، حاحرق نفسي، أجيب جاز كده وأولع في نفسي. جلست على الأرض لكن عايدة دخلت: إنتي إزاي يا مجنونة تقولي الكلام ده قدام الغريب، بدت عايدة عدائية حتى إنني خِفت وهي تنظر إلى في قسوة وبرود وزاد وجهها صفرةً، ثم ابتسمت الأم ونظرت إلى عايدة في خبث، وأخذت تغني:

بعد بيتنا ببيت كمان حلو ساكن من زمان.

وأخذت ترقص وتصفق بيدها، وتدور في الغرفة، وعايدة تُومئ لي بعين صغيرة في مكر وخبث لذيذين. هل ابتسمت لي، أم أنا الذي تخيلت ذلك، ثم قالت: أنا مش عارفة بتوع القصة بيكتبوا حاجات كده. مطت شفتيها: قصص وحشة يا ماما، قلة أدب خالص.

أخذت أقهقه ونسيت إحباطاتي ومذلتي وهواني وكيف أنني في سبيلي إلى التشوه والتفريغ من الداخل، وتساءلت من أين ينبع العنف في الداخل وكيف يكون وجه بهذه البراءة والوداعة بهذه القسوة، أتأمل الوجوه وأنا أعرف أنني أخدع بطريقة متكررة لإيماني بالوجه وأن هذا الوجه هو الكاشف الوحيد عن داخل الشخص ولذلك دائما ما أدقق في الوجة شكل الجلد، الأنف، نظرة العين، طبقات الصوت وفي النهاية فراستي دائما فاشلة وكل الذي وثقت فيه من خلال قراءتي لوجهه خاب أملي

فيه، نسيت ماذا فعلوا معي وأخذت أروي حكايات لا رابط بينها، وهي تنظر إلى في لا مبالاة حتى التزمت الصمت، فتحت التلفزيون ورفعت الصوت، وأخذت تنظر إليه، وأنا هارب بعيني إلى الفراغات، حتى أنني غفوت وصحوت على ضوء قوي، كانت كاميرا سينمائية تدور موجهة أضواءها نحو جثث الخال، الأم، عايدة. وقد تعفنت، وديدان صغيرة عيونها زجاجية تخرج من الجثث، بحزمة ضوء قوية نحوي، لتبعدني شيئًا فشيئًا.

سرب من النساء المنقبات يمر من أمامى.. أنا الواقف في الدكان أنصت لشوبان متعة أو رغبة فى التمايز، لست متيقنًا من شيء؟ من أين تأتي كل هؤلاء النسوة؟ ينبثقن كأنهن زهور الرمان السوداء التي تنبثق مكتملة ثم تعود لتطوي أوراقها مرة أخرى إلى الداخل. أنظر إليهن في استسلام قدري وكأنني إزاء سد مأرب وهو على شفا الانهيار، ولا أملك وسيلة لوقف الكارثة لا يوجد آلة تمنع الكارثة سوى يدي، أقف مرعوبا ومرورا من تلك البداوة المجسمة سيرا على أقدام ممتلئة وملفوفة في شربات سوداء وعيون تتلفت في حذر أو عداء يتجاوزونني ونظراتهن لا يمكن أن تحددها هل هو إغواء أم عداء؟ لم يعد شيئًا واضحا تماما الرمادي أصبح سحابة ضخمة تغشي عيني.

يصلان إلى سراي هند قرب المساء ويغلقن الباب والسؤال يلح على كيف يمكن فض مغاليق هذا الكون الذي اسمه هند؟

عندما أتت عندي في الدكان أردت إحداث شرخ ما للدخول لهذا العالم الغامض كنت منتشيًا بالفعل فأخذت أحكى عن أميرة خرافية الجمال تحلم بأن تطير فوق المكان الذي تعيش فيه إلى عالم غير محدود وعندما فتحت عينها وجدت نفسها تطير بالفعل، كانت سعيدة حد الجنون إلى أن تذكرت أسرتها فسقطت من عل على صخرة ضخمة وتناثر دمها.

نظرت بنصف عين لعلني ألمح اهتماما أو رغبة في الإنصات لكنها بدت لا مبالية، ثم وضعت ورقة الطلبات في حياد، استلمت الورقة وأنا أشعر بضآلة الشأن. انتهيت من وضع الطلبات في كراتين، وقدمت لها الحساب، فأخرجت حقيبتها الصغيرة وأخرجت بضع أوراق من المائة جنيه وناولتني ثلاث ورقات، وضعتهم على البنك، وطلبت منى أن أرى سيارة لتوصل الطلبات، قلت بحدة: وأنا مالي، هوانا كاتب لافتة مكتوب عليها " توصيل الطلبات للمنازل؟.

قالت: أنا آسفة، باين أخطأت. أحسست أنها صبت علي ماء باردًا، بخاصة أن لها طريقة راقية في التعامل، وعندما خلعت النظارة كانت دموع تتجمع في عينيها..

تركت البنك وذهبت إلى آخر الدكان وأنا أشعر بالخزي، وكم أنا منفعل ورأسي مملوء بالهواجس والظنون والوساوس القهرية التي توجبني وتدفعني للخسران.

أغلقت الدكان في المساء وذهبت حتى اقتربت من السراي، أنا الدرويش المغبون في كل الأزمنة تحت هالة من الكبر والتواضع والمحبة الزائفة، أدور حول السور وبي رغبة لاقتحامه، وأعلم أن الجوهرة تتألق هناك وأن بقائي في الخارج فيه تلفي وهلاكي، وإن كنت أعلم أن هذا البيت مرصود وأن قدري هو أن أدور حوله في رحلة أبدية حول السرايا التي ترقد في ثبات وجبروت، رغم ما يبدو عليها من قدم. وقد افترضنا أنها

ستهدم على يد الأميرال يوسف عبد الرحمن الضابط في سلاح الفرسان، بعد أن تمت إحالته إلي الاستيداع ، بعد شائعات عن دور له في التآمر على الثورة وإصابته بطلق ناري، قيل إنه أطلق خطأ من بندقية صديقة، أصابت العمود الفقري وقد نجا بأعجوبة، فقط شَلَّ وخرج من المستشفى على كرسي متحرك، وضاع أمله في أن يكون سفيرًا " لمصر في بلجراد". استقر على السرير ووجهه يتقلب بين الأسى المريض والفرح المُعَذَّبْ ، وهند راكعة على ركبتها في مواجهته وهى تردد: أحبك أيها المحب.

والأميرلاي ينظر إليها مدهوشًا" ومرعوبًا" من زهور النوران التي تنمو على وجهها، وكأنها خفافيش صغيرة.

قال: هند أنت روح طفلة وأخاف عليك من دنس المدينة.

أداء مدهش زرع فيها توهجًا جعلها تفكك محتويات الشقة، وفى الصباح كانا مغروسين في ربوع الريف وظل داخل السراي من ٦٢، إلى ٦٧ يقرأ القرآن متابعًا الجرائد والمجلات التي تتناول أحدث الأسلحة وبؤر التوتر في العالم، وكل حين تنتابه موجات عنف لا يستطيع خلالها السيطرة على ذاته، يقذف زجاج الشبابيك بأدوات الزينة الخزفية، وحوض السمك الزجاجي، ويمزق الستائر التي يراها واحدة من الأسباب الرئيسية في عقم الواقع وتحلله، يجأر بصوت درامي عتيق يناجى الله لتفكيك هذا العالم الداعر. وهند التي كانت ترتدي البكيني وتسير على شاطئ البحر مكتفية بذاتها، باعتبارها حالة فنية أكثر من كونها واقعا "حيا" حتى وهى ترتدي الحجاب، وتسمع التواشيح، وتقرأ القرآن، وتنام مبكرا لكي تنغمس في الحلم، وتشكل هذا الحلم حسب مزاجها الشخصي. وفى ليلة رأت نفسها تسير في صحراء خالية من البشر، وكف قدمها تطبع على الرمل، وينمو مكانها عشب، رغم أن الكون يمور بريح عاتية، ورغم ذلك لم تستطع الريح أن تمحو آثار أقدامها، ولأنها تؤمن بالحدس والحلم والخيال فقد اعتبرت أنها مختارة لدور يتجاوز ذاتها. وفى حلم آخر رأت نفسها وحيدة في صحراء، والسماء فوقها خالية من السحب إلى أن جاءت سحابة تركت الكون كله، وصبت عليها ماء أسود قاتمًا قامت على أثره، أضاءت النور وصلت ركعتين في فزع، واعتبرت أن هذا الحلم هو نداء آخر ولذلك قامت وارتدت النقاب لكى تحدث توازنا" في هذا الكون المضطرب، وبخاصة بعد موت المحب، وزواجها من ابن عم لها، كان يقف في العزاء كالبرنس، هذا الغندور، الجميل الصورة والممتلئ بالحيوية والقوة عندما تم الزفاف، وقد كان يتوقع أن يغمره النعيم، اكتشف أنها عكس ما تصور تماما" في هذا الجانب، فكان يظل صابرا" حتى تكاد خصيته تنفجر، فيحلب ذاته ويجلس على كرسي خيزران أمام البوابة يتعجب من النسوة اللاتي يدخلن، والأجسام اللينة التي تستحق أن تغوص السكين في لحمهن.

وآخر الليل يفرقع نصف صندوق بيرة، ويلهث حول السرايا إلى أن تخرج الست صارخة: أنت تعمل اضطرابًا في الكون بصوتك المرعب وسلوكك المنحط المنحط.. مش كفاية إنك مش ...؟

ثم تغلق الباب بقوة، الانسجام، الانسجام.

وهو ينغلق على ذاته، ثم يسير على المشايات التي تفصل الزهور في الأحواض المثلثة والمكعبة والدائرية، والتي جاءت حسب تصور الست.

كان سكرانا، ينظر إلى زهور الفل، الياسمين، النرجس، بحقد ويراها السبب في الخديعة. وفى يوم صمم - وهو قليلاً - ما يصمم على شيء أن يفض بكارة هذه السرايا، ولذلك قام مفتونًا بما يملك من فتوة وجبروت، لم يستخدمهم طوال عمره. في رشاقة لص صعد على مواسير المجارى وكسر شباك الحمام ودخل، ومنه إلى الممر الذي يؤدى إلى البهو، ومنه صعد إلى الدور الثالث، وتسلل إلى الصالة، ومنها إلى حجرة الأنتريه

ابتسم وأوسع فرجة في الستارة فرأى خلالها النساء متخففات من ثيابهن السوداء، ولحومهن الشاهقة البيضاء تتألق ويتطوحن على صوت موسيقى ناعمة وجسومهن الطرية اللينة تهتز اهتزازًا" خفيفًا" حتى يمسسن بعضهن مسًّا"، روع وأحس أنه قد تم إسقاطه، تركه تمامًا وأنه في حالة ضياع لم يعرف إلى أي مدى إلا عندما سمع صوت هند يخرج منها عذبًا وصلبًا تهتز له السرايا وتشهق شهقات مروعة حتى لم يعد قادرًا على الاحتمال، أخذ يجري وينزل درج السلم في جنون، يبحث جوار الجدار عن بندقيته الميزر إلى أن وجدها وأخذ يحرك الأجزاء متوعدًا: لازم القحبة تموت.

يضع رصاصات ويضغط على الزناد لكن البندقية تكدب منه بسبب الصدأ، وفى عنف تجاربه انطلقت رصاصة في رأسه فتهشمت وسقط ميتًا، والنسوة المعتكفات اندفعن بعريهن إلى الخارج. كان ممددًا على الباب، تقدمن من الجثة وحملنها ودخلن به السرايا.

٢

في تلك الحالة التدقيق واجب في معرفة الفروق الطفيفة أو الجوهرية في مبحث العدل الإلهى لدى الإمام الغزالي والقديس توما الاكويني. هذا الدأب في البحث الذي جعلني أزيح ركام الكتب من على الأرفف وأرميها على الأرض وأحتمل كماً هائلاً من الغبار والعنكبوت مما جعلني أبدو كهلول يخوض في الوحل، الذي وصل إلى عنقه، وهو يتصور أنه يتطوح في جنة عدن. هذا الفحص الذي يكاد يؤدى بي إلى الجنون، ليس مرده بالتأكيد هذا الهوس بالقتل سواء في أفغانستان أم العراق. هذا الاحتفال اليومي الذي وقوده أجساد عراة تطير في السماء بلا أجنحة ولكن شيئاً أكثر جوهرية وعمقًا وهو الحر اللزج الذي يجعلني أكاد أختنق بالفعل، ولذلك خرجت للتحرر من كوابيسي المنزلية، خرجت أدور على المشايات أتنشق نسمة هواء إلى أن تعبت فرجعت بعد العشاء على ضوء الأنوار التي تزين فرح مريم ورغم أنني أكره أفراح الأثرياء بالفطرة فإن هذا فرح مريم وبخاصة أنه المكان المناسب الذي تحقق فيه السلام الاجتماعي الكامل فالعروس تحب العريس، والعريس أضاع نصف ثروته لكى يرضي العروس والتكافؤ بين الأسرتين يمثل العدل المطلق. ثم هذا الطرب الأصيل الذي لا يتحقق وجوده في البلد، إلا كل حين، انحرفت تجاه السرايا أرقب الحفل، العروس، العريس، الراقصة، المطرب الذي يقف كالفارس يلبس قميصاً أبيض وبنطلوناً أسود محبوكًا ووجهه أبيض حليق وشعره مدهون بالجيل، صوته بديع يحرك المايك في يده، ويجرى على المسرح في خطوات استعراضية جميلة ثم يقفز قفزة بدائية وحشية خلقت نشوة بين المعازيم، الذين أخذوا يصرخون ويرقصون والعريس قام من جوار العروس، وخطف عصا من واحد من المعازيم. وأخذ يرقص في دلال وعهر قحبة والمغنى يدور حوله والعريس يترك رأسه على صدر المغنى الذي قذف بالمايك للطبال وخلع القميص كاشفًا عن صف من الأسلحة البيضاء تحيط بخصره، خطف المطواة وأخذ يطوحها في الهواء ويسحب الخنجر، السنجة، الساطور، السكين،

حتى أصبحت فوق رأسهما خيمة من الأسلحة التي تتألق وتنعكس على وجوه المعازيم، العروس.

العريس يتأوه في نشوة وينزل على ظهره في تدريجات وكأنه راقصة محترفة حتى رقد على ظهره على خشبة المسرح والمطر ضم السكاكين وجعلها تنساب في نعومة وحدة في قلب العريس والدم تناثر على وجه العروس التي صرخت

: " حبيبي له في الغرام حاجة" .

انفض الفرح وهرب المطرب وتم تقييد الحادثة ضد مجهول، وأطفئت المصابيح في السرايا وفى اليوم التالي رحلت هند، ومريم ارتدت النقاب، وقيل: إنها في هجرة دائمة إلى أين؟ لا أحد يعلم؟

فى أيام أخرى تسللت إلى عقل البواب وقلبه لأنصت لحكايته الأسطورية ودوره العظيم في إدارة السرايا حتى أعطانى المفاتيح وفتحت الباب فانطلق من داخلها هبو أبيض، خطوت إلى الداخل وهيىء لي أنني أسير في لحم أنثى يشبه صحراء من الكثبان الرملية وعلمت أننى في حلم وأننى مطارد بالأحلام ولذلك يجب أن أنتبه حتى لا أسقط في هوة الكوابيس حتى لا تدمر البقية من أعصابى التالفة، فتحت غرفه فخرج منها صراخ أطفال وغناء وحشيّ مرعب والحجرة الثانية صلبان وأهلة ورايات وسكارى ونخيل وأشجار جافة وزهور ميتة ومسامير تتبعني، جريت وقلت: لم أعد احتمل الكوابيس المدمرة التي تعصف بي.

ضربت الباب الأخير لكى أخرج من الحلم والسرايا، ضربت برعب المقتول فانكسر الباب . كانت الغرفة فارغة تمامًا، ولها باب قديم ومتهالك يؤدي الي خارج السريا من الجانب الخلفي وخرطوم مياه تنساب منه مياه باردة كأنها خارجة من مبرد. تقدمت وأنا حذر حتي وجدت قدمي تنزلق وأسقط علي ظهري وتصطدم رأسي بالبلاط . ظللت فترة ساكتاً حتي اجتاحتني فورة فرح فضحكت وشعرت بالنشوة من الماء البارد، انتفض جسمي وبدأ ينزل منى سرسوب يبلل البنطلون لا أعرف إن كان ماء أو منياً، أُنهكت على إثرهِ، وتكومت على الأرض...

رامة والتنين:١

(*) مهداة الي ادوار الخراط

.....

المهندس سامي نجيب الموظف الكبير بوزارة الري المشهور في القرية بالرجل الطويل، الذي كان يظل ساعات طويلة واقفًا أمام الباب في مواجهة الحديقة دون أن يتحرك

فقط الاستغراق في التدخين والنظر إلى المساحات الواسعة من الأراضي المزروعة بالسمسم والتين وأشجار الفواكه حتى إن العمال لدى المعلم كانوا يتصورونه مخبولاً ولاسعًا ونهايته العباسية " إن شاء الله " حتى أصيب بداء لا يعرف أحد مصدره في صدره وطلب ندبه لري الفيوم كما أشار الطبيب، وانتقل إلى هناك مع الست (رندا)زوجته المتفانية حد الجنون وتعرف الخصال الدفينة الباطنية لزوجها الذي كان يحلم بأن يشتغل في الفن ويصبح مثل الفنان عبد الحليم حافظ وانتهى به الأمر حبيس جدران البيت، يستغرق في الشرب ثم يهذي هذيان المحموم ويؤلف موسيقي شريرة تجعلها مفعمة بالشهوة وتندفع في الاستغراق في ممارسات جنسية شاذة وعندما ترفض هذه الممارسات، كان ينزوي حتى يكاد يجف مردودًا : الجنس لذتي الوحيدة الباقية.

وعندما ماتت الست رندا وهي تلد ابنها عوض، اغتم وزاد هزاله وشروده الطويل، والسير في حدائق الفيوم وملاهيها وبحيراتها وعزف عن العمل في المصلحة، وأخذ يشرب في شراهة ويعود إلى البيت متأخرا حتى قرب الفجر...

وفي النهار يدور في الاستراحة ناظرًا إلى صورها المعلقة ذاهلاً، يخرج ويتأمل البنت عايدة البكرية، ويبكي في عنف (الشبه الخالق الناطق) ويمضي ذاهلاً. يخرج في عز البرد حتى تهتك صدره ومات في عز شبابه (قدس الله روحه وجعله مع المسيح في الأعالي).

عادت عايدة في صحبة أخيها وجدها المعلم نجيب، الى العزبة في ساعة متأخرة من الليل، وتم إنزال العفش وقام العمال بإدخاله وتخزينه في واحدة من الغرف الكثيرة في القصر وأغلق عليه بالمفتاح. المعلم نجيب دخل غرفته وبكى وحده ثم جفف الدمع وخرج إلى حديقة البرتقال واتجه إلى المنحل وجلس على الرمل والنحل يطن فوقه ويسرح على جسمه ويقرصه وهو شبه غائب يخرج أقراص العسل ويصفيها في كف يده حتى تمتلىء وتنزل لتختلط بالرمل هذا الرجل الذي ترك العمار وناس أتريس ودخل في عمق الجبل وغرس بيت وطلمبة وشجرة توت وماكينة وأخذ يروض الجبل في صبر لا يلين، وعزيمة جبارة حتى حول صخوره وهاده إلى مزرعة كبيرة يزرع فيها البرتقال، المانجو، الجوافة، الليمون. وضع فيها خلايا النحل لتدر له الشهد (كل دا تم بالجهد والعرق وسهر الليالي وبركة يسوع ابن الرب) وفي الصباح التالي كانت الفرس تلد وعندما ولدت، كانت مهرة جميلة سماها المعلم نجيب عايدة، وأطلقها تصهل في الحقول. كبرت المهرة، كبرت عايدة ونبت نهداها فخرجت تقف في الفراندا وهي تلبس فستانًا قصيرًا حتى ركبتيها وحبل قطن يلف حول كتفيها العاريين منقوش عليه زهور بنفسجية، وعيناها الوسيعتان تبرقان في وجه الشمس وشعرها الفاحم ينسدل حول كتفيها، وجسدها الريان بدأ ينمّل، وروحها الفتية تتقافز، وعندما أقبل جدها والست دميانة قبلتهما في فرح خالص.

تعالي يا بنت يا عايدة الكنيسة خلي أبونا يباركك، اشتعل اللهب في خديها وأطرقت في صمت.

*

خلاص يا دميانة هي حرة وسحب العباءة على كتفيه وسار وسط الحقول، وعايدة عيناها تبرقان في البراح تتبعهم حتى اختفوا.

اشتعلت الشمس وغاضت بالدم، وتسلل الهواء الرطب يطير ثوبها فدخلت إلى البيت وجاءت بالشرائط والبك أب ونزلت وسط الحقول تسمع أغنيات "أم كلثوم" فيروز، ماجدة الرومي عبد الحليم حافظ وتشم رائحة زهور الليمون الفواحة التي تدير الرأس حتى رأت المهرة عايدة تصهل فنزلت من على السلالم واقتربت منها فوجدتها مربوطة في قدم الصبي الأخرس شمندي بن عبد الله الكومي، الواد المقطوع الذي يؤويه المعلم في غرفة في آخر الجنينة والمتربي في المزرعة مند كان صغيرًا، وكان يعمل بعلف البهائم التي يربيها المعلم...

كانت عايدة تقف فوق رأسه وهو لا يراها وشمندي عفي وعروق يديه تكاد تخرج من جلده، وعندما رفع قامته كان يبلل سترته الزيتية التي كان يلبسها على اللحم والغبار المتطاير يلتصق بلحمه وينزل مع العرق على صدره المشعر، رفع قامته رآها تقف أمامه، ترك الفأس واندفع الدم الساخن كله في وجهه الأخرس، وترك العرق ينز، وبص لوجهها الخلاسي، وسيقانها السمراء اللمعة، وعنقها الطويل والمعلق به سلسلة تنتهي بصليب مغروس بين نهديها، الولد ذهل وانفرط منه الدمع، مختلطًا بالعرق والغبار ونظر إلى السماء التي تكاد تنغلق عليهم، والشمس بدأ لهيبها الأصفر يختفي. اقتربت منه وغاص حذاؤها في التراب ومسحت دموعه بيديها الطريتين، وأخذت تمسح العرق عن رقبته ووجهه وصدره العاري.

اعتم الكون وسكن الكل في الغرف، تسللت عايدة من غرفتها، ومرقت من البهو وفتحت الباب مندفعة في اتجاه الحديقة تغوص في قلب الحشائش والقمر السائب يتبعها أينما سارت، وعندما سارت إلى شجرة المانجو تجده هناك ينتظرها في قلب العتمة تبتسم وتسترخي عضلات قلبها، وتسير جواره تاركه يديها له، يسير بها في طرقات متعرجة حتى يصل إلى الغابة فيحملها ويغوص بها في وسط الماء وتطقطق الطحالب تحت قدمه العريضة الخشنة ويدفع بيديه الأخرى الغاب المهوش، وهي مستسلمة غارقة في فرح يحتوي كل كيانها حتى اجتازا الغابة وظهرت الصحراء عارية إلا من رمل ناعم، شجر عكرش منطو، وأشجار شوكية خالية من الحياة فيخلع سترته ويفرشها لها ويجلس على ركبتيه ناظرًا إلى واحة عينيها، والقمر يقترب يفرش الرمال التي تضوي، هسيس النسيم يتسلل إلى جسده العاري. سرعا ما يتساقط مطر من عينيه يلمع في ضوء القمر كحبات لؤلؤ فتقوم عايدة وتمسح دموعه براحة بيديها وتميل عليه وتقبله في صمتٍ تمص شفته السفلى، ويداها تمسكان شعره الهائش وتتركه يفتح بلوزتها ويمس نهديها الصغيرين في

خوف ورهبة حتى يتسلل الفرح إلى جسديهما ويشتعل الدم الفوار وتطقطق عظامها أكثر من مرة وترتعش ركبتاه رعشات متقاطعة ويتساقط الندي رطبًا على الجسد العاري
وفي الصباح فرحة كانت تطارد فراشات وتقفز من مكان إلى آخر حتى بدأ يدب في حشاها شيء كدودة ثم باعدت ما بين ساقيها
: يوه. قالت الست دميانة بعد أن نظرت وتعجبت وهمست في أذن نجيب، وأخذت تدور في البيت تراقب عايدة في توجس وخوف، حتى حط المساء وغطى على الكون والمعلم يبتسم ويناغي عوض الحفيد وعندما كان الكل في مرقده انسلت عايدة وسارت في قلب الحدائق، وخطا المعلم على خطوها حتى رآها وقبض على المشهد بعينيه؛ فعاد في حذر يدور في أروقة السرايا ودهاليزها المعتمة حتى عادت عايدة.
كان ينتظرها وبجواره الست دميانة وشعرها الطويل هائشٌ وصدرها مفتوح والصليب يرقد ما بين نهديها. اقترب منها المعلم ومزع الصليب من رقبتها: أنت خطية يا بنت، وكمان من مسلم.
وصفعها بعنف فسقطت على الأرض ونز الدم من رأسها: خديها يا دميانة وراقبيها. سحبتها وصعدت بها السلالم وعايدة صامتة لم تكن تدرك ما جرى مرتبكة لم تع شيئًا، وكأنها مخدرة حتى وصلت إلى القبو الذي بناه المعلم في أعلي السرايا خصيصًا لأبينا كي يستريح فيه بعيدًا عن الضوضاء في أيام عيد الميلاد المجيد قبل أن تبنى كنيسة في أتريس.
صعدت الست دميانة مع عايدة حتى وصلت فوق سطح السرايا، وأخذت تفك القفل الصدىء. وعندما لم يفتح أحضرت لتر جاز وغمرت القفل فيه وعندما فتحت زيق الباب وشرخ الكون ودفعت عايدة في القبو وعادت لم تجد المعلم الذي دخل غرفة لا يدخلها إلا عندما يكون في مأزق كبير، وعندما دخلت عليه كان يصب لنفسه كأس نبيذ يصنعه على يديه، ناولها قدحًا: وبعدين يا معلم؟
الواد الأول نشوف له صرفة وبعدين تفرج. نامي، نامي أنت يا ستو. في هذه الغرفة تم رسم السيناريو الذي سيسير عليه القبط في بناء الكنيسة وبقوة المعلم فهيم والخواجة رزق بائع الذهب وكان رأيه واضحًا: إحنا معانا تصريح صحيح من الرئيس عبد الناصر لكن الحكاية عايزة شوية حذر... نعملها على مراحل خطوة، خطوة، قاعة اجتماعات، أفراح، مذبح، جرس كنيسة.
وعندما نظر إلى الحية الراقدة تنظر إليه في لا مبالاة، تذكر يوم تركها تنهش القصير اللعين الذي حاول أن يستولي على الأرض: وكان لازم أبكي عليه طول إقامة القداس آه. أومال أيه. نظر إلى الأفعى، وأمسكها من رقبتها وأخذ يمسد الشعر النابت فوق رقبتها وجسمها الأملس الناعم وعينيها الزجاجيتين الحادتين، أغمضت الحية عينها، فمد المعلم يديه في جيب السيالة وأخرج سكينًا رفيعًا حادًا وجز رقبتها مرة واحدة، وصفي السم في كوب

صغير، وتركها تتقافز. ثم عاد إلى غرفته ونام حتى فرشت الشمس وجهها على الأرض قام ونزل إلى الحديقة وأدار الماكينة وأخذ ينظفها ويضع فيها الجاز. وقاس الزيت والفلاحون يروون الحوال البحري، كان واثقًا بأنه المنتصر وأن كل شيء سيسير وفق مشيئته: يا ما دقت على الراس طبول، حتى أصبحت هذه الرأس أصلب من الحجر، وهذا الصدر حاوي مكر وأسرار ومكائد لا تنتهي، رغم أن هذا الفخ الذي وقع فيه كان كارثيًا لن يستطع أن يفلت منه دون تشوهات، الولد ميت، ولكن البنت لم تعد بنت، ثمرة البرتقال أصابها العطب، الجوهرة انتهكت، كان يريد أن يجعلها سلاحًا حاميًا وكان يرسم على علاقة نسب تزرع الأمان داخله الفترة الباقية من عمره ولكن، السافل يجب أن يتعذب، الشرير يجب أن أرى النار تأكل فيه. وتنهشه وتمزق أحشائه.

وقرب اشتعال الشمس عاد إلى البيت وحمل سلة بها عيش وغرف من خلاياه قطفة عسل ودس فيها السم. وذهب بها إلى آخر الأرض. حتى وصل إلى كوخ الأخرس. فوجده نائمًا فنادى: يا شمندي. يا ولد يا شمندي. قام الأخرس فزعًا فأشار له المعلم. نزل الأخرس وهو متعب. أوديك للدكتور يا شمندى؟

أشار بلا، طيب تعال نلعب دور سيجة. أنا تعبان وعايز أتسلي في حاجة. ابتسم الولد شمندي وأشار بعلامة النصر... أخذا يلعبان في همة حتى هزم شمندي المعلم. فأخذ يضحك من قلبه. تعال. تعال يا ولد. إنت غلبت المرة دي. ماشي. وسحب الأرغفة والعسل وأكل. وضرب على صدره بعلامة القوة، وعندما تبعثر دم الشمس في الأفق سحب المعلم المنديل المحلاوي ووضعه في السيالة ثم حمل السلة وسار تاركًا الأخرس يدور في الحقول ناظرًا إلى القمر المخنوق وبطنه بدأت تمور... وبدأ يئن أنينًا خافتًا يتعالي شيئًا فشيئًا حتى لم يعد يحتمل فأخذ يجري باحثًا عن عايدة تحت أشجار البرتقال يخوض في الغاب والهيش ويفتش عن أثرها، يعود مرة أخرى يحاول أن يقترب من السراي ثم يعود. إلى البوابة المغلقة، قفز من على السور وجرى في المشاية، حتى أنهك وعرف بالحدس أنه ميت وعاد مرة أخرى يريد أن يرى عايدة، أن يراها ويموت، قفز على السور يبحث عن صوت. لا شيء إلا أصوات الضفادع وصرير الهوام وعندما لم يعد قادرًا على الاحتمال، جرى في الحديقة صارخا ولا مجيب سوى الفراغ. يقترب من السراي التي أطفأت أنوارها وبدت معتمة، يجري ويعوى في الفضاء عواء مرعوبًا يهز الكون وصوته يزداد وضوحًا: آيده. موت آيده. شندي موووووووووووووت

وكانت عايدة تسمع صرخاته ونحيبه المؤلم في قلب العتمة، وهي تدور في القبو وقد ضربها الجنون فأخذت تضرب في الحائط وصوته يرن في أذنها آيده... موت آيده. تضرب في الحائط ويخرج جأرها كصوت عرسة تنبح في الفراغ مت... مت يا شمندي...

وفي الصباحات التالية كانت عايدة تلتصق بالحائط مدهوشة وشعرها الحوشي ونظراتها مفزوعة ويداها تلتصقان بركبتها لتحميا بطنها التي تعلو شيئًا شيئًا!

.....

(١)

تناثر الدم في الكون والشمس اختفت خلف الحقول.. والفلاحون حملوا الفؤوس وعادوا إلى بيوتهم. جثة شمندي قد بردت وتسللت الحشرات إلى فمه، وبدا جلد جسده هشًّا، خرج المعلم نجيب من السرايا وقد تهيأ وحمل الكوريك وسار تاركًا دميانة تناغي عوض وترفعه إلى السماء. ونزل إلى الحقول وهو يلتفت بحرص حتى وصل إلى مكان قد روي، وأخذ يحفر بالكوريك في صبر وتأن حتى حفر عمق رجل.

ذهب إلى النوالة (مكان يوضع فيها تقاوي البطاطس من عام إلى آخر) وربط الحبل في سرج المهرة عايدة وأخذ يسير به في طرق متعرجة، حتى وصل بها عند الحفرة ففك مقوده وأخذ يدحرجه حتى أسقطه في الحفرة، وداراه بالرمل، وأدار الماكينة في الحوال حتى اختفي كل شيء إلا ذبابة زرقاء بدت تحوم حول الحفرة..

هل برح مخيلته طوال الليالي الفاتنة؟ هل ندم؟ عاد إلى السرايا ودخل غرفة الأفعي وأشعل الشموع المطفأة ورمي شلتة على السجاد الإيراني، أحضر الكأس والنبيذ وأخذ يشرب بهدوء. اندهش عندما رأى القديس مارجرجس وبيده الحربة يحارب التنين وكأنه لم يره من قبل. ولم ير صلابة القديس، وهو ينظر إلى عينيه القويتين وهى تطارده، وأخذ يزحف تاركًا المكان، دخل غرفته فوجد الست دميانة تأخذ عوض بين أحضانها.

نظر إلى المرأة فوجد وجهها صغيرًا وطيبًا وبريئًا وخائفًا، وجسده الضئيل وحياته التي مرت وهو يضع قناعًا زائفًا ملعونًا غطى على روحه واعتقلها، يجب أن أفعل ما أريد أن أفعله لن يخرج من نسلي مسلم أبدًا.. أخذ يبحث في السندرة حتى وجد حبلًا من الكتان، أخذ يلفه بين يديه ثم غمسه في الزيت وصعد مع شرائح الضوء الخفيف درج السلم المؤدي إلى القبو الذي ترقد فيه عايدة حتى انتهى إلى السطح، اصطدم بالبخار الرطب الذي يغلف الكون، أخرج المعلم المفاتيح الصدئة وأخذ يفك القفل في هدوء وبدنه يرتعش وصوت تنفسه يتعالي.

توقف وفكر أن يعود. قدمه ثبتت في الأرض، وهو يحث نفسه على الدخول.. لن تقاوم. سيلتف الحبل حول رقبتها لمدة ثوانٍ، وتموت ويلقي الجيفة في المستنقع، أزاح الباب الذي زبق تزبيقًا حادًا مزق روحه سار يتحسس البلاط، فوجد عايدة تنظر إلى كوة صغيرة نحو السماء، وقد ضمر جسدها وعيناها اخذتا تتسعان

اتساعًا غريبًا وكأنها مخبولة، اقترب منها كانت مضيئة حتى كادت أن تشع تمامًا وهي تتحول أمام ناظريه الي كائن أخر تماما "فصرخ وجري مسرعًا وكأن غولاً يتبعه رافعًا حربة الموت ويطلقها في إثره.

كان يسمع صوت الحربة تتبعه حتى سقط يتدحرج من على السلم ، وصل للدور الارضي وقد خمد غائبا عن الوعي ورأى نفسه يسير في الملكوت ويرى يسوع ابن الرب بجواره الساروفين وهو ينادي بأعلى صوته ابن الرب الذي أشاح بوجهه حتى اختفي، نظر حواليه، خرائب تحيط به ونبت في الأرض شوك، قنفذ، عرس ابن آوى بجسمه الطري يقف في مواجهته، ضفادع وحشية تتقافز وتطلق صوتًا مزعجًا يكاد يصيبه والأفعى تقف وقد نبتت لها رأس سوداء. يحيطون به ويزحفون نحوه وهو واقف بلا حراك ينظر إلى البعيد ولا يري سوى الوحشة دون معين أو زاد وحيد في هذا الكون، استسلم مادا ذراعه إلى الأفعى التي غرست مخالبها في ذراعه، والضفادع وابن آوي والحشرات السامة يبركون فوقه.

.....

(٢)

استيقظت الست دميانة على صوت صراخه المؤلم. جرت، وجدته مكومًا على درج السلم وقد بال على نفسه حاولت أن تحمله لم تستطع فجلست تبكي إلى جواره، وتذكرت رحلة العمر الطويلة التي عاشت فيه معه منذ أن تزوجته قبل الحرب ألكبري بأربع سنوات وهي معه في كفاح، تقطير متواصل، كفاح بلا آخر، لم تتذكر يومًا أنه كان هناك ترفيه أو لهو، وكأننا مكتوب علينا أن نعمل ليعيش الآخر والآخر يعمل ليعيش آخر وهكذا دواليك وكأنني سلسلة من الأضاحي لم يتغير شي منذ دخلت هذا المكان ونسير على خط مستقيم وكأننا آلات، لمن نترك كل هذا المال، كل هذه الخصوبة التي لا ينتفع بها أحد. مرارة لم تنقطع منذ أزالت الرحم، موت الابن، الزوج، مأساة عايدة.

تنادي حتى أتت عايدة، حملت جدها وأراحته على السرير ثم عادت وأدارت قرص التليفون عدة مرات حتى حضر الدكتور عادل ابن عمتها وعندما دخل الغرفة التى بدت عطنة ورائحتها كتمت على روحه خرج مسرعًا

لم يشأ أن يقول لهم: إن الضربة في الرأس كانت قوية جدًا ولن ينطق أو يسير مرة أخرى: أبدًا أملنا في الرب كبير.

قام وفتح الشباك: الضوء صحيّ وكلنا محتاجين الشمس

قامت عايدة ونزعت الستائر الكابية ودفعت الشبابيك فتسلل قرص الشمس.

كان على دميانة أن تحمل هموم المنزل المقبل على التفسخ أخذت أولا تشيع بين الفلاحين غياب شمندي المتكرر وأرسلت تسأل عند أقرباء من بعيد وأصدقاء: الواد قاطع فينا

- اِنت عملت اللي عليكِ كده، واسم الله المعلم كان يعامله مثل ولده، وأتريس كلها تشهد على ذلك.

- الغيبة طولت ولا حس ولا خبر

- الرك على الأصل، ابعتي والنبي شوية مش يا ست دميانة

- عينيا، بص، فوت على بيت الواد سعد ابن الست لويزة مِرات المعلم وهبة وقله المعلم عايزك

- حاضر من عينيا يا أم سامي

سعد ولد غلبان مثل البنت الحيية، خجول منذ أتى إلى المعلم ليتوسط له للعمل بعد أن تخرج في دبلوم التجارة وقد توسط له المعلم لكي يشتغل في البريد ولكن ماذا تقول له؟

تركت الفلاحين في الحقل وذهبت إلى السرايا وجدت المعلم ينظر إلى قرص الشمس وقد بال على نفسه: تاني يا معلم، رفعته من على السرير بمساعدة عايدة ونظفته بالماء والصابون وغيرت ملاءة السرير وأراحته على السرير وجلست بجواره على السرير بعد أن غمرته بالملاءة.

طوال عمرنا ظللنا نكد بحثا عن الأمان وخوف من الآتي، خوف من الجار خوف من الله. معلم هل خُلقنا لكي نخاف؟ لكي نعيش في حالة رعب نكبح خلالها رغباتنا وأشواقنا، هل ما عشنا من أجله وهم، شرانق وخنادق وممرات سفلية كان وهمًا، وهل نحن قادرون الآن فعلاً على التغيير وصناعة مصيرنا بأيدينا أم أن العمر فات وخرجنا من المباراة خاسرين. نحن خاسرون، هذا الاعتراف الوحيد هو الذي يمثل لنا الشرف الوحيد حتى لو كان بيننا وأنفسنا .

.....

(٣)

عايدة منزوية في غرفتها تنظر إلى الفراغات وتعيش مع شمندي في أحلام لا تنتهي، ترى نفسها بجوار شمندي والزهور والرياحين من كل صنف تحيط بهم وبرك الماء العذب تترقرق أنهارًا وجداولَ صغيرة، وقد غمر الكون ضوء القمر ليضوي الزروع الريانة وتسمع ضحكة شمندي غريبة ولكنها جميلة ثم يحملها على ذراعه وهي تنظر إليه في فرح وعشق أبدي ولا يقطع صوت نهر الفرح إلا صوت في الخارج. تزدرد لقيمات لكي ينمو ابن شمندي.

الجدة مستغرقة في التفكير في عزلة، والمعلم ينام قبالتها على السرير حتى دخل سعد وقبل يديها، انفطر وتراجع عندما رأى الحية: تعال يا سعد دي ميتة، اقعد. ناولته كأس نبيذ وأخذت تروي له كيف تسلل الثعلب اللعين شمندي واغتصب الطاهرة وفر هاربًا عندما حاول المعلم أن يقبض عليه، وكاد أن يقتل المعلم وعايدة اليتيمة أعصابها انهارت وتصرخ طوال الليل وهياجها لا ينتهي، وسعد ينصت وقد تهدج صوتها، وهي تلون في صوتها وتنشج في بطء حتى تحول صوتها إلى عويل فبكى سعد، ولم يخرج إلا بعد أن اتفق على الفرح.

وقفت عايدة أمام القس ورددت قسم الزواج وأنها راضية تمامًا وإلى الأبد، تردد وهي تقاوم الانهيار، وعندما عادت من الكنيسة ودخلت السرايا مع عريسها أخرجت الجدة المعازيم بسرعة وعذرها أن المعلم في غاية التعب، ويكره الضجيج وعندما خرجوا أغلقت الباب وأطفأت الأنوار وتركته في الهو حائرًا.

وفي الصباحات التالية كان يدور في السرايا خجلاً يحس أنه غريب وأنه يمثل دورًا ليس له، سرعان ما خرج من القصر، كان تعسًا وهو يدور في القصر ورائحة عرقه قد فاحت حتى عرفت الجدة فدخلت عليها الغرفة وكبست عليها:

. واسم الله إن لم تتركيه يدخل عليكِ لأكون مخلّصة عليك أنتِ وهو مرة واحدة.

وحددت مكان الطفل في بطنها، ولم تتركها إلا بعد أن امتثلت وقد غمرها العرق وتناثر شعرها على عينيها والحيرة تسيطر عليها حتى دخل عليها وعيناها تنظران إلى البعيد عبر الشباك.

جلس جوارها وأخذ يتكلم في هدوء، وهي غير منصتة، عن مشيئة الرب وكيف يجب أن يمتثل العبد لأوامره وهي تنظر إلى السُحب التي تحولت إلى اللون القاتم في شكل تنانين تملأ السماء وقد توجهت إليها وبدت أنيابها الحادة مخيفة، تقترب وتكاد تتدخل من شبابيك وتنقض عليها فصرخت وراحت في غيبوبة، وقفز سعد خارج الغرفة.

في الأيام التالية كان الزمن يمر ببطء، يتقاطر في روحها بسأم ثقيل فوق روحها حتى أتى الخريف، وسرى في الكون هواء رقيق وصفا الجو، وانزلق القمر في ساعة صحو داخل رحمها فغمرها العرق وانزلق منها، الوليد.

عيناه سوداوان وملامح شمندي مطبوعة على وجه الطفل وسعد سعيد بالطفل وبناغيه ويظل يُدلّلهُ طوال النهار وفي يوم التعميد أتت الست دميانة وقالت لعايدة: حضري نفسك بكرة التعميد.

- حاضر

وتذكرت شمندي ونزلت من على الفراش والليل يفترش الكون بغبار أبيض رقيق.

- ماذا أفعل؟

سارت في الحقول تغوص في الحشائش حتى وصلت إلى شجرة المانجو واستندت عليها وسمعت صهيل الفرس يرج الكون وعينها تجوس في المكان باحثة عن شمندي، سارت على الدرب، واجتازت المنحنيات ثم وقفت أمام الغابة وبدا بدنها الرقيق يرتعش وقدمها تغوص في ماء الغابة الراكد، أزاحت الريم الراقد الذي يغطي على سطح الماء والغاب يصطدم برقبتها ويجرحها فتتسلخ قدماها من الغاب النابت حتى انتهت إلى الصحراء، نظرت حولها خلعت بلوزتها وفرشتها ونامت عارية، ثديها وبدنها يضويان، ناظرة إلى بركة الماء المعلقة في السماء حتى غفت، ورأت نفسها تقف أمام الكنيسة وصوت يناديها باسمها، نظرت فوجدت شمندي وكأنه يوم القتل، وقد ظهر صوته جلياً، عايدة، ابني يا عايدة، يده وصوته المجروح يكادان يزلزلانها والجدة تجرّ منها الوليد والشمامسة والقسس يقفون لكي يتم تعميد الوليد الذي يصرخ ويكاد يتمزق بينها وبين الجدة، صرخت وقامت تنظر إلى الفراغ، كان القمر قد غاب، خطت نحو السرايا وفتحت غرفتها وحملت الوليد بين ذراعيها وخرجت من السرايا تجاه البوابة

فتحتها

سارت!

القسم الثاني

جسد فى ظل

٢٠١٠/١٢/٢٣

الشمسُ يفخُّ وهجَهَا اليوميَّ، والرجلُ المعطوبُ يرقدُ وقدْ ضربه الجربُ فبدا جسدُه مهترئًا، وأظافرُه تبحثُ عن البثور، ليزع قشورَها بعصبيةٍ مفرطةٍ، يصرخُ: خراب.

الجوُّ خانقٌ، ريقه جفَّ تمامًا، عينه الذئبية تبحثُ عن ماءٍ لم يجدْ سوى ظل يكتمُ على روحه.

ساعتها أحسَّ فى لحظةٍ أنه تاه فى صحراء، وفجأةً وجد نفسَه يسقطُ من فوق الجبل يسقط بقوةٍ مدهشةٍ، ويحسُّ خلالها جسدَه ثقيلاً كالرمل يسقط بقوةٍ، تنفجر البثورُ تفرقعُ مثل تفجر البالون، وعندما انتهى إلى القاع كان يعومُ فى بركةٍ من القيح الذى ازداد حتى غطى جسمه، زحف على صدره، دخل فمه، فلم يعد قادرًا على التنفس. انتفضَ من الكابوس إلى النهار المرّ، ينظرُ إلى البيتِ الذى دفع دمَ قلبهِ فيه، وعذابه فى

الغربة أصبح الآن سجنًا يضيقُ عليه، خلاء. صوتُ طلمبةٍ يمزعُ الفراغ، ذباب يحتل المكان، خرق قديمة: يا بت.. إنت يا بت

فتح بابَ الوسط الذى يفصلُ الفرنَ والحظيرةَ عن البيتِ، خرجتْ منه بنتٌ صغيرة منكوشة الشعر، مدورة الوجه، بيضاء، تكاثرَ الذبابُ على وجهها: القلة... القلة يا بت.

البنتُ أحضرتْ له الإبريقَ الذى يستخدمُ فى الحمام. لم يأبه، اندفعَ فى شربِ الماءِ حتى انتهى منه، ثم قذفَ البنتَ بقوةٍ صارخًا: يا كلاب... عايزين تموتونى.

شج رأس البنت التى أخذت تصرخ، وتتمرغ فى التراب وهو يجأر ويسرسع: يا كفرة.. أنا هاموت نفسى.. أكلتونى لحما ورميتونى عظم يا كلاب!

اندفعتِ الأمُّ تجاهَ البنتِ، بينما أخذ يتزحزح ملتصقًا بالحائط. سحبت البنتَ وقد أحمرَّ وجهُها حتى أصبحَ كتلةً من الدم الخالص، ذهبتْ إلى حوض الطلمبة، وضعتْ رأسَ البنتِ فى الحوض، وأمسكت يد الطلمبة، أخذتْ تدقُّ فى قوةٍ والماء اندفع فوق رأس البنت التى بدت تشهق..

المرأة التى تضعُ فى عينها كحلاً يزيدهما حسنًا، و يزيد سوادهما ألقًا، ترفع ثديها بمشدٍّ مخرم، فيبرز ثدياها وتلبس قميصَ نوم نايلون، وجلبابا أبيض، فتبرز السيقان والجسد القادر. أخذت تدعك حتى بدا الجرح الذى شج ثم رفعتها وقربتها من الفرن وكبشت رماد الفرن وكبست ومازال الدم يسرى!

تركت البنتَ بجوار حوض الطلمبة، وذهبت إلى الرجل الذى سحب القميص الدبلان، وغطى به نفسه. اقتربت منه، أمسكته من ياقة جلبابه، ورفعته فى مواجهتها وقالت له:

مش حرام عليك؟

فبدا ينشج نشيجا خافتا سرعان ما تعالى:

العاهرة الصغيرة

كان شعرها متناثرا على عينيها التي بدت شديدة التوهج وتوارى السواد ليعلن الأبيض التحدي.. اليوم منتصف يناير والشمس تختفي خلف غيوم كثيفة.. البنت التي اكملت عامها السادس عشرة، تلبس بلوزة بيضاء، منقوش عليها أشجار صغيرة سوداء ووجهها الأبيض المدور يبدو فاتنا كانت ترتدي جيب جنز ممزق من الأيادي الكثيرة التي نهشتها فبدت شرائح اللحم المغوي إلى ان فتح فرجة بين الجموع ودخل ووقف في مواجهتها، رجل طويل وجهه أصفر رأسه مدورة كثعبان ينظر في مرارة وحقد يوزع نظراته بينها وبين الجموع :

- أهيه الفاجرة بنت الكلب اللي جاية تبوظ أولادنا.

. لا.. عليا الطلاق ما يحصل أبدا طول ما أنا موجود. هو مفيش رجالة في البلد

. إيه رأيكم أنا بقول ندلق عليها مية نار..

لم يرد أحد ثم أخرج مطواة وفتحها في قوة فلمعت في ضوء الشمس.. أنت عارفة أنا مين يبت؟ لم ترد. ارتعشت شفتاها فبدت فاتنة.... طال الصمت قامت وأزاحت الواقفين وسارت

.....

(١)

البنت عايدة بنت رزق لما نبت نهدها وبقى زى الرمانة ، هاجت. عايدة بنت المعلم رزق شنودة بائع العطور في خان الخليلي الذي أخذ شقة ثلاث غرف وصالة واسعة ومطبخ وحمام في حدائق القبه ومن سنتين وقع عليه رف متهالك ومات.

كان رجلاً شحيحًا يموت على التعريفة ويلبس (نضارة كعب كباية مشبرة وإطارها عتيق من أيام سيدنا كحكوح . ترك الصعيد ونزل القاهرة ما بين ٥٣، ٥٥ مش فاكر؟ واستقر عند جوز أخته نادية وقيل إن هناك أسبابًا كثيرة لتركه الصعيد وهو لا ينفي أو يؤكد فهو رجل كتوم رغم أن الموضوع لا يوجد فيه سر والسبب الوحيد هو شح الرزق وضيق الحال ورغبته القوية في تحسين أحواله وكان أول عمل له في قهوة في السيدة زينب يظل طول النهار يعمل حتى تعرف على بائع عطور في الحسين، وعندما رأي فيه خفة ونشاطا وذكاءا، طلب منه أن يعمل معه، وبالفعل استطاع بنشاطه وهمته وصبر الزوجة الأولي أن يدخر مبلغًا محترمًا يستطيع أن يفتح به محل، ولم يخجل من صاحب محل العطور، بل قالها بهدوء وقوة في نفس الوقت: أنا خلاص مش جاي بعد النهاردة...

- ليه

قال بتصميم: هو أنا هشتغل معاك للأبد صبي.. أنا بكره هيكون لي محلي الخاص.

ولما شيخ الحارة وجد له شقة هايلة في شبرا رفض بتاتًا، مع أنها جوار بيت جوز أخته.

- ألبتة.

- شنودة الشقة قريبة من الجماعة... دي لقطة

- لا

وانزوى بشيخ الحارة: خصوصًا تكون بعيدة عن شبرا

ولما الست زوجته ماتت في منتصف السبعينيات، ولم تنجب وهو قارب على منتصف الأربعين والدنيا تغيرت والحالة اتحسنت وفى المحفظة ثروة استطاع بها أن يتجوز شكرية بنت الأسطي سمعان الخياط البريمو وكان دكانه في الخليفة.

المعلم شنودة صياد، البنت مراته كانت فتنة وهو كان عارف ولذلك بدا يضيق عليها ويغلق عليها الشقة بالمفتاح.

- عايز أعرف ليه الرغبة في الخروج للشارع يا غالية يا وهيبة، متنسيش الخارج كله شرور ، يا طيبة اعتبريها فرصة عشان تتأملي في حياة ابن الرب. الزاهد

لدية صلابة خنزير يريد عمل شيء، ينفذه زى الكتاب ما بيقول.. يذهب بإصرار كل أحد للكنيسة ويده تقبض على يد عايدة، والزوجة المخلصة بلا اعذار حتي لو كانوا مرضي فبدوا اسرة متماسكة مثالية.

- معنديش انحراف، الشافي هو الله

ولأن عايدة وحيدة شربها صناعة العطور بالمعلقة واحدة واحدة.. حتى أصبحت بيرفكس و بعد أن مات مسكت المحل بيد من حديد.

(٢)

الست وهيبة جت من القداس بعد أن قبلت يد أبونا وطفرت سيلا من الدموع ورسمت إشارة الصليب وشكرت المسيح في الأعالي ثم قامت وصدرها يموج بالغضب وفتحت الدولاب ونزعت هلاهيله ورمتها على الأرض وسحبت الصندوق الفضي المرسوم عليه الصليب وأيقونة العذراء وهي تحمل ابن الرب، فتحت الصندوق وتفحصت أشياءه ونظرت حوالها، لمبة، سهراية بجوار السرير الأرضي المرتب بعناية والكتاب المقدس موضوع على رف، حذاء مرتق، سجادة اشتراها عام خمسين. أعادت ترتيب الأشياء بعد أن نزعت عدة أوراق مالية من فئة المائة جنيه ووضعتهم فى صدرها ثم قامت ووضعت الهلاهيل في السندرة مع الأحذية المرتقة من ككل جانب، المفكات، المقصات، علب البوية، مواسير مياه، زجاجات فارغة، ملابس ممزقة، ساعة يد واقفة.

الست وهيبه فتحت الشبابيك ونفضت الغبار المتراكم ونظرت إلى المرآة وأطلت فيها ووضعت كريم الأساس وعزمت الجيران على الشاي وأرتهم العفش الجديد اللي أشترته من بيع المصنوعات وقمصان النوم والأحذية والشربات والفساتين من شارع فؤاد...

في عز الليل ربح هاجت وصفقت الأبواب والشبابيك بعنف، قامت عايدة مفزوعة تتحسس الجدران وفتحت غرفتها، ووقفت في الصالة وأنصتت لصوت الريح.. تمهلت حتى اعتادت عيناها الظلمة وخطت خطوات إلى أن أصبحت أمام باب غرفة أمها فتحت" فرجة" وأطلت داخل غرفة أمها لترى الأهوال والشياطين الذى تلبستها وأخذت تنهش فيها بقسوة، تكومت على الأرض حتى استعادت وعيها فقامت تجر ذاتها حتى وصلت إلى غرفتها، وهناك أشعلت شمعة، نزعت ملابسها كاملة ووقفت أمام المرآة تتحسس الثدي المدور، الردفين، الساقين التلين تضويان فى وهج الغرفة وارتمت على السرير ووضعت مخدة لينة بين ساقيها، وأخذت تفرك في عنف.

(٣)

وقفت أمام المرآة تنظر إلى شعرها الأسود الخشن ووجهها الميال للسمرة وعينها السوداوين الصغيرتين والزغب الصغير النامي فوق شفتها الرفيعتين الحادتين وأنفها الدقيق... كان وجهها بريئًا وطيبًا دخلت الحمام ونظفت نفسها وفي اليوم التالي دخلت غرفة أمها وأحست باحتياجها إلى طوفان من الحنان تجاه أمها.

الغرفة لها رائحة مميزة. فتحت درج التسريحة وأخرجت علبة التواليت ومسحت وجهها بالبودرة وشفتها بالروج وتعطرت بعطر غال تعرف قيمته فهو من العطور التي تميز المحل، وأخذت تمشط شعرها بعناية ثم دخلت غرفتها وسحبت بنطلونا جينز وبلوزة بيضاء وارتدتها على العري فظهر ثديها واضحًا والحلمة مغروسة في البلوزة...

نزلت من البيت واجتازت الحارة وركبت الأتوبيس (أخرجت حافظة النقود وأعطت المحصل عشرة جنيهات وأخذت الباقي وغرست عينها في عينه)

نزلت ميدان المطرية وأخذت تتجول في الشوارع قرب المترو ثم ركبت أتوبيس (٤١) ونزلت ميدان التحرير وسارت على الكورنيش وهي تنظر إلى الموج الدافئ الذي يلمع تحت سطوة الإضاءة.. لم تستطع أن تؤلف علاقة.

قالت: آخر حاجة أدخل جاردن سيتي، الشباب هناك بيشغي، سارت في شارع القصر العيني ودخلت محلا للفطائر. أكلت فطيرة بالزبد ونظرت إلى المرآة، كان شعرها الخشن نافرا فبدا مهوشا بشكل يدعو للإزعاج. عادت إلى الحمام وبلت يديها من الصنبور، ومسحت به شعرها وخرجت من المحل إلى الشارع. اجتازت شارع القصر العينى. سارت في قلب الظلام تتجول فى شوارع جاردن سيتي المعتمة، لا أحد. حتى كلت وخبت لمعة عينيها فعادت مرة أخرى وركبت تاكسيا وارتمت على الكرسي ناظرة إلى السقف في لامبالاة. ثم نزلت وصعدت الدرج وفتحت الباب ودخلت غرفتها وأطفأت النور وشدت اللحاف وأخذت تشخر في العتمة.

.....

دخل بطريقة غير شرعية إلى ألمانيا ومزق أوراق الهوية عندما دخل إلى شقة خاله د عدلي مكرم الصيدلي المهاجر من أوائل السبعينيات، وقد تزوج من فتاة المانية ولم ينجب سوي مادلين التي تزوجت من شاب الماني وعاشت معه في مقاطعة بافاريا ولم ترضخ لتوسلات ابويها لتعيش معهم وبررت ذلك بكون زوجها شاعراً ويحب ان يكون مستقلا ويعشق المقاطعة المتميزة .

الخال كان سعيداً بوجوده فهو ريحة من مصر، وونسه يحكي معه عن البلد الذي بتر منه وقذف في بلد كل حال فيه غريب كما أنه والد نبيه وشاطر وساعد الخال في الصيدلية وكلما وجد فرصة عمل خارج الصيدلية قام بأدائه ما دام سيكون في أمان بعيدا عن الشرطة، وظل طوال فترة وجوده لا يسهر في بار ولا يدخل السينما ويقضي أوقاتًا طيبة في الكنيسة حتى سمي في محيط المكان بالعذراء، وعاش هناك مسالمًا وراضيًا إلى أن حدثت تفجيرات سبتمبر وتم القبض عليه وترحيله ساعتها بكي الخال بكاء مراً، وارسل له المال بالسحتوت.

وعندما عاد إلى القرية، في الصعيد وبالفلوس الذي وفرها، بنى بيتًا وتم تشطيبه كيفما أراد، لا يعمل ويقضي الوقت في البحث عن عروسة تخفف من حنقه من الفراغ الذي يعاني منه فلا يوجد أصدقاء لكي يسامرهم، ولا توجد سينما أو مسرح أو مقاهٍ، فقط تذهب إلى العمل وتنام إلى اليوم التالي الذي تذهب فيه إلى العمل. روتين يومي مستمر.

حرارة الجو مريعة جعلت المكان خانقًا. خرج ووقف على باب البيت وهو شبه يائس من الشمس التي تصب جحيمها عليه، فتح أزرار القميص وبدا صدره في مواجهة الفراغ وأزاح غطاء الزير فملأ الكوز الصفيح المربوط في الغطاء وأخذ يصب على رأسه والماء ينساب ويتكوم تحت قدمه، الملابس التصقت بجسمه فأحس بالعري وتذكر زميلاً له في المدينة الجامعية عندما رأى اهتزاز ثديه تحت الملابس قال له: أنت مخنث؟ خاصة أنه وسيم ويترك شعره مسترسلاً إلى الخلف فيبدو شبيهًا بالبنات وعندما رد بهدوء: لا، أنا مش مخنث. سحب يده وتفحصه. وقال دي أصابع أجمل من صوابع فاتن حمامة. هجم عليه بقوة وأخذ يضرب جسمه في الحائط ويصرخ صراخًا متواصلاً قبيحًا حتى أن الولد بكي من صراخه وعوائه المؤلم وليس من الضرب وتكوم على الأرض. ساعتها سكن وابتسم وترك المكان.

أغلق القميص وهو يحس بوخز العيون التي وراء الشبابيك وفوق الأسطح عيون لا يراها، تتجمع وتلتصق وتتوجه نحوه تتفحصه بلا إنسانية. عيون مدمرة تسحقه وتجعله يحس أن الكون غريب وقاس إلى أبعد مدى. دخل غرفته وهو يرى أنه بدأ يفقد الإيمان. أخرج الكتاب المقدس وأخذ يقلب أوراقه ثم جمع ملابسه ووضعها في حقيبة دون أن يعير

البيت أو أسرته أدنى التفاتة، تجول في شوارع القاهرة وتنقل في كثير من الأعمال حتى انتهى إلى إدارة سوبر ماركت الأستاذ صبحي اندراوس ولأنه أمين، رقيق يبدو كملاك فقد سلمه مفتاح شقة يملكها في أرض اللواء وزوجه الابنة الأخيرة عنده... نادية.

صبحي صاحب سوبر ماركت المحبة بحدائق القبة الذي تجاوز السبعين ولم يعد قادرًا على إدارة المحل وليس له أبناء ذكور ترك إدارة المحل وكل عام يقوم بجرده. ويظل طوال النهار في المحل مثل النحلة يرص البضاعة أمام المحل ينظف الأرضيات بريمو يقوم بحصر البضاعة المنتهية صلاحيتها ويتصل بتاجر الجملة لكي يأتي له بالبضاعة الناقصة، وعندما ينتهي من العمل آخر الليل يكون في غاية الإنهاك تمامًا، تقوم نادية بوضع الأكل له والعودة إلى النوم مرة أخرى. دخل على زوجته التي كانت عارية تمامًا وكان كلما قال لها: قميص نوم يا نادية. ترد أنا بارتاح في عريي كده ملس على وركها واقترب بشفته من بطنها فتنبه على كدمات زرقاء على بطنها، تحت السرة يتجول بعينيه ليرى بيديه كدمة تشبه حفر أسنان، بدا مرعوبًا ومروعًا فخرج من غرف النوم إلى الحمام، إلى الصالة، نزع ورقة النتيجة وجد في هامشها مكتوب لأنها إرادة الرب.

استكان لأنه مؤمن ويجب أن يكون راضيًا. حتى عن الشرور التي لا تحتمل. لم يفعل شيئًا فقط نام جوارها على السرير يفكر في مصير الإنسان، وهل يملكه الإنسان بالفعل أم أنها إرادة الرب، وما على المؤمن الحق إلا الامتثال؟ وانتهى إلى أمرين إما أن يعذب هذا الجسد الشرير المدنس بالخطيئة، ليطهره ويستمر في الحياة أو يترك كل شيء ويعود مرة أخرى إلى البلد.

كان الأمران في غاية الخطورة فهو لا يستطع أن يؤذي نملة فما بالك بروح إنسانية، أما البلد فكارثة تماثل الموت. لم يصل لحل حتى انتشر النور في السماء فغادر البيت إلى المحل وظل هناك يقلب في وجوه البشر الذين يعرفهم ولم يصل إلى شيء. كان يريد أن يقوم بشيء فعلا لكن لم يكن من الداخل قادرا على شيء، أغلق المحل ووضع لافتة (مغلق للاحتفال بعيد الفصح) وفي الصباح ذهب مع الأسرة إلى قرية الأستاذ صبحي في أتوبيس وخرجوا إلى البحر.

يلعبون هناك بالكرة في فريقين، لندا بنت المعلم وزوجها عاطف، وإيفون وزوجها رامي، ومريم فكري وعادل جرجس. المباراة كانت جميلة وحامية وفي وسط هذا انتشل نفسه من المباراة ووقف في مواجهة البحر يأخذ نفسه بعمق. يده مفرودة على آخرها وكأنه مطلوب يطلق صراخا اقرب إلى العواء. صراخ تنبه له المراكبي والمزارع وشماس يركب حماره على الجسر والأسماك في البحر والحمير والغاب وورد النيل والنمل والجمال والكلاب، أما أسرة المعلم صبحي فيلعبون الكرة في غاية النشوة والهياج دون أن يسمعوا أي صوت أصدره عياد سمعان وهبه.

الكائن

ديكة تؤذن، نثار أبيض، يبصق، خلاء. سيل أبيض منثور يندفع في الشوارع وفوق الأشجار، والرجل الذي تجاوز الثمانين بأعوام قليلة سحب الإبريق المصنوع من الفخار وتوضأ واتجه إلى القبلة في تبتل واستغراق وعندما انتهى نظر وتذكر أنه لم يصلِّ بعد. وتساءل: وكأني ما ربيت ولا تعبت ولا تركت شيئًا أبدا

الرجل ممصوص الوجه سقط، وهو يمر على غرف الأولاد وأنصت لشخير، بكاء طفل، هسيس، لا شيء ألبتة، استند على عصاه وركب الحمارة السوداء ساحبًا بقرتين فاقع لونهما وسار في اتجاه الحقل بعد أن أغلق الباب وفي طريقه نثر حَباً من المقطف الموضوع أمام الباب للبط، كانت قطعة حمراء تخرج من رحم الكون وقليل من الدفء وعصافير تزقزق وتلتقط الحَب وفضاء رحيب صامت حتى وصل إلى رأس الغيط....

ترك الحمارة وأشعل سيجارة ثم أخذ يعلق المحراث وعندما انتهى ضرب بالفرقلة في الهواء فاندفعت البقرتان وسن المحراث يشقّ الأرض وحَب البطاطس يبصق في فرح خالص وهو يهز المحراث حتى يغوص سن المحراث في لحم الأرض وعندما رفع قامته في مواجهة الشمس العاتية رأى كائنًا غريبًا يضرب بجناحيه في قوة ويظلل عليه – هل فزع؟ وقد غطّى على مساحة كبيرة من الكون وبانت مخالبه قوية ومنقاره معلق بالسماء... أخذ ينظر إليه حتى لم يعد يرى شيئًا ألبتة إلى أن سقط عليه وانتزعه من مكمنه وسار عائدًا يضرب بجناحيه في الكون تاركًا رجلاً جف عوده، محروقًا بشمس

قادرة وعيونه متقدة تنظر في اتجاه واحد وقدم من العظام مغروسة في أديم الأرض في قوة وصلابة وبقر أصفر فاقع لونه يمخر في الفراغ!

***

عجوز

تعريشة عنب سقطت. أحواض شتلات الطماطم والكرنب والبصل هرستها الخيول.

الرجل العجوز المحنيّ يلتقط أنفاسه وهو يجري في محيط الأرض حتى وصل إلى رأس الغيط والعرق الغزير خطوط على وجهه المحروق بصهد الشمس الحارقة. يلم عناقيد العنب المفروط والمهروس وكأن حربًا تجري فوق هذا المكان.

العجوز عيناه خرزتان صغيرتان ويقاوم في عناد، وإن كانت هناك دموع متجمدة في عينيه، يلتقط عصاه وقلبه الواهن يكاد يقفز منه، عطور أشجار البرتقال نفاذة، يندفع داخل أشجار البرتقال، حشائش نمت وأصص مانجو مقلوبة، صرخ وهو يلهث: أين الوفاء؟ ويد عوض ما زالت آثارها على الفروع والورق والجذوع، يلهث ورِيالة تنزل شريطًا لا ينقطع:

- مش عوض اللي زرعك؟ مش عوض اللي زرعك؟

يعفر أشجار البرتقال بالرمل، سقط مطر من عينيه وبعض زهور وكثير من الأوراق الخضراء!

خرجت من مستشفي الدمرداش في العاشرة تمامًا، كان الجو لطيفًا والشمس في السماء باهتة. هل كان من الضروري أن تطلبي مني يا أمي أن أحضر لك شهادة وفاة أختي؟

مع أنني كنت متصورًا أمي قوية وكانت قوية بالفعل حتى كان يوم انهيارها يوم أن وقفت ابنة أختي الصغيرة تلح عليها أن تحضر لها أمها وكانت تختارها لا أعرف لماذا؟ مع أن أباها موجود وجدها وكل الأسرة كانت تترك كل هؤلاء وتقف في مواجهة أمي: هتيلي أمي... حتى مسكتها أمي من أكتافها وأخذت تهز فيها أمك ماتت يا سمر... أمك ماتت يا سمر وأخذت تصوت صواتًا مرعبًا أشبه بجئير مخبولة، هزت الموجودين فبكينا وهي سقطت مغم عليها وحملناها بعد أن رششنا عليها الماء وذهبنا بها للطبيب وعلق لها الجلولوكوز وأعطاها حقنة تقوية، وعندما أفاقت كانت تردد، مش عايزة أشوف البنت دي... مش عايزة أشوف البنت دي وتردد وأنا أهز فيها خلاص.. خلاص يا أمي.. أبوس أيدك إحنا في الشارع أنت مش مؤمنة، وحدي الله ودموعي المتحجرة بدت تفلت مني.

هل هذا مكتوب على لسبب لا أعرفه أن أظل هكذا أقوم بالأعمال المؤلمة التي يهرب منها الجميع؟

المستشفي بلا ملامح وإن كان في محيطها مساحة من الخضرة لم تفلح في التقليل من انكسارى ومرارتي، المرضي متناثرون ما بين الطرقة والأسرة، الجدران تنشع رطوبة، وقفت أمام الموظف، في انتظار أن يستخرج الشهادة، كنت متعبًا وأريد أن أجلس على الكرسي ولكن شجاعتي خانتني فظللت واقفًا حتى حصلت على الشهادة، خرجت وفي يدي شهادة الوفاة.. ثم ركبت الأتوبيس الذاهب إلى المنيل لكي أذهب إلى المعهد الذي لم أكن أذهب إطلاقًا إلى محاضراته أو أشتري كتبه بتاتًا.. نزلت من الأتوبيس ثم تجاهلت الذهاب للمعهد وانحرفت في شارع مواز، وسرت إلى أن وقفت أمام عمارة من أربع طوابق، صعدت درجات السلم المبري حتى الدور الثالث. وقفت ثواني أمام الباب أحاول أن أرسم ابتسامة على وجهي.. لم أستطع.. دققت على الجرس فتحت لي خطيبتي وابتسمت لي ابتسامة مرحة: حماتك بتحبك... الكرنب اللي بتحبه

حاولت حماتي أن تقوم ولكن لم تستطع لثقل وزنها

قالت: هو عارف غلاوته عندي قد إيه

كانت تلبس عباءة زرقاء وأنا كنت خائفًا أن يحدث شيء يربكني فأبكي قلت: أنا عايز أخرج؟ قالت: مش حتاكل

- لا

- طيب ثواني.. هربت بعيني إلى الخارج ناظرًا من الشباك إلى الأشجار العارية من الأوراق باحثًا عن تجمعات الطيور التي تكاد تخرم أذني

خرجنا إلى الشارع، الإسفلت مكسر والشارع مكتظ بالسيارات رغم انه شارع جانبي انحرفنا حتى وصلنا إلى الكورنيش.. جلست على الطوار وأخذت أنظر إلى البحر

قالت: تصدق أنا كنت حاسة إنك حاتيجي النهارده

كانت طيبة وداخلها شفاف بشكل لا يصدق وكنت مشفقًا عليها من النزول في أرضي المملحة العقيم، كان داخلي يقين أن هذه البنت لن تكون من نصيبي، لا يمكن أن تكون كل هذه الطيبة والبراءة لي، حتى أنا نفسي لم أتخيل مرة واحدة أنها تسير بجواري باعتبارها زوجتي وبجوارنا ولد او بنت وأنا ضجر أو مرح، كانت الأحلام تنتهي عند نقطة معينة نقطة مبهمة لم أحددها، تعرفت عليها وأنا في السنة الأولي بالمعهد كنت دائم الجلوس بجوار البحر وحدي لم تكن رومانسية أو أنني أعيش في خيالات أبدا ولكنني لم أستطع أن أتواصل مع أحد حاولت أن اقيم صداقة ولكن المعهد زحمة وكل شلة مكتفية بذاتها، أو ربما أنا شخصيا كنت غير قادر على التآلف، كان داخلي منطفئًا ولم أكن أستطيع أن أقفز على حالة وأمثل المرح والبهجة، كنت ضعيفًا ومهملاً رغم أنني مثلاً كنت في مرحلة الثانوية أكثر الشباب صخبًا ولكن شيئًا يسقط داخلك فجأة فتخطف منك البهجة والفرح وتهمل وتصبح منسيا، .....

ابتسمت ونظرت إلى البحر الهادئ باحثًا عن كلمات فسكتت ونظرت مثلي إلى البحر... قالت: شايف وأشارت نحو قارب عجوز وبنته أو حفيدته الصغيرة التي تفرد الشبك في قوة وعزم قلت: حياة صعبة

قالت: النهاردة فيه فيلم في سينما فاتن حمامه " المغتصبون " بطولة ليلي علوي، قايمة فيه بدور ممتاز... اندفعت سيارة في عنف، العربه حمراء تركب فيها فتاة وشاب يلبس نظارة تغطي مساحة كبيرة من وجهه.

شهادة الوفاة عرقت في يدي فنقلتها إلى يدي الأخرى، قالت: إيه ده؟ وسحبت الورقة من يدي.. ونظرت فيها وشحب وجهها واستغرقت في تفكير عميق ثم مدت يديها إلى وقالت: البقية في حياتك. نظرت إلى الأشجار العارية وأنا أمنع الدموع التي تتراقص في قوة.. قمت وتلفت ومسحت الدموع في كم القميص وسرت وهي بجواري تنظر إلى البعيد.. تنظر والصمت والشحوب يغطي علينا تركنا المكان والبحر والأشجار العارية، والفتيات التي على الشاطي.. حتى وصلنا إلى البيت قالت: مش ح تيجي.

- أبدا.
- طيب مع السلامة. وتركتني أمام الباب وصوت كعبها يرن: تك تك

.....

كهك بارد، والهواء اللعين يضرب الأبواب بعنف، والشوارع خلت من البشر وفي غرفة صغيرة في طرف البيت من البيت الكبير الذي تسكنه ثماني أسر، سحب سلامة بخيت أولاده ودخل بعد أن استأذن من الحاج بخيت.

إيه ياوليه، لقمة الواحد جاع، لم ترد، كانت مشغولة بإضاءة اللمبة نمرة عشرة، غبار من الليل تناثر في الأركان، صعد سلامة فوق السرير أبو ناموسية الذي كان يفخر به بين أقرانه بل بين أخواته على اعتبار أنه متزوج من امرأة من بيت ميسور وقد تمسك الأب بالسرير أبو ناموسية ومراية برغم أن كل ذلك أصابه العطب فالمراية تكسرت ستين قطعة، والناموسية تمزقت والسيدة التي كانت حلوة ونظيفة تقدر تقول بكل أريحية ضربها جرب، وأصبحت عضم على عضم، غبار من الليل تناثر في الأركان، صعد سلامة فوق السرير الذي بلا ناموسية ووضع قدمًا على قدم وأخذ ينظر إلى السقف المعقود من الغاب الذي بدا مغبرًا، أحضرت أم فتحي المنقد ووضعت القوالح فيه، ودلقت عليه الجاز من الكوز وأشعلت في القوالح النار، العيال تهرش بفعل الحشرات:

- ياد يا فتحي،، إنت يا له،. دخل المعزة وهات لها شوية برسيم

- أنا بذاكر خلي أشرف

اتنطر أبي فجأة: قوم قامت قيامتك

جريت وفتحت الغرفة وتذكرت أنني أريد التبول فتبولت بجوار المعزة وسحبتها فتسلل الدخان وتآكلت القوالح وتحول إلى جمر خالص. أم فتحي بدأت تقمر العيش البتاو على الركية ويصدر منها صوت هادئ رتيب، وعينها الضيقة ينزلق منها الدمع من آثار الدخان فتمسح عينها بكم الجلباب، أمسكت قطعة من النار وغرستها في الحائط وصدر صوت البق ينفجر، جرى أشرف:

- أمّه هاتي الكولجه، لم تأبه

- أبا أبا، مش جدي ها يبنى البيت بالطوب الأحمر؟

- آه

أنا كل ما أقول للعيال كده يقولوا: والنبي ياد أنت فشار

انسلتت قطة ودخلت الغرفة، الغرفة خانقة، وأخي أشرف يلعب مع المعزة ويأكل السريس، قفز الأب عندما رأى القطة وأغلق الباب

- قوم يا كلب يا بن الكلب حلق معايا على القطة

قالت أمي: يا راجل سيبها دي الملايكة حرساها وإحنا في الليل

- اسكتي أنتي

نار همدت ومواء قطة في منتصف الغرفة وفرح مكتوم، أخذت القطة تدور بعينها في فراغ الغرفة وعندما شعرت بالفراغ قفزت في فزع، حاول أبي أن يلتقطها وهي تطير في الهواء لكن لم يستطع وتركت خمش أظافرها على يد أبي الذي صرخ: آه. ولحس الدم النازف من يده

الغرفة عبقت بالدخان وصوت أبي الجهوري يمزع الفراغ وعيونه شجر التوتيا، ووجهه المدور وشاربه الهتلري الذي كلما رأيته ضحكت: بتضحك على إيه يا بن الكلب، أشير إلى شاربه.

- دي زى هترر يا وسخ

كنا نضيق عليها الحصار، وهي تنظر إلينا في شراسة ورعب وأمي تكح من الدخان حتى أحمر وجهها المزرق وبرزت عروق رقبتها، والقطة تدور وتزوم

- يا راجل اقعد وريحنا الله يريح قلبك

- اسكتي ياك سكت حسك

- كده والنبي ما أنا مسكاها، وجلست

- يا ولية القطة حا تدخل تحت السرير وحا تكفرنا الليلة دي

كانت عينا القطة تلمعان بشكل خفيف، حاول أشرف أن يمسك القطة ففلتت ودخلت تحت السرير، صرخ يا ولاد الكلب

قالت أمي: إية الليلة السودة دي

- دي ليلة أمك السودة يا بنت البغلة

- يا راجل ما تنكدش علينا، اتهد ونام

- أنا أتهد

أمسك أمي وأخذ يضرب فيها بالشلوت وبيديه في حركات هوجاء فدفعته أمي دفعة قوية فسقط على مؤخرته، ويده ضربت المنقد قام واشتبك مع أمي وأخذ يضرب بكل قوة، وقد سقطت التربيعة من على رأسها فمسكته من الصديري وغرست أسنانها في صدره وأخذت تضغط بقوة وهو يضرب ويصرخ. دفعها بقوة فارتمت بعيدًا عنه، حاول أبي أن يعاود ولكنها أقسمت لتصوت وتلم البلد

توقف أبي: حاضر، إن ما ربيتك.. طيب يا بنت العضاضة، حاضر

- آه بتضرب ليه،، الصمت غطَّى علينا لثوانٍ ثم قام أبى، وقال لفتحي: هات القطة من تحت السرير

انا خايف الدنيا ضلمة تحت السرير وكمان ودني بتوجعني

- ما احنا واقفين أهه

- معلش يا با خلي أشرف

- يا ولاد الكلب، اقترب مني وضربني بالشلوت

- يا راجل السرير تحته كراكيب وتكون فيه حاجة تقرصه
- عليا الطلاق ان ما سكتي لتكوني طالق
استجاب أشرف ودخل تحت السرير وأخذ ينادي القطة: بس، بس ثم خرج
- والمصحف والمصحف الشريف ما أنا شايف حاجة
- طيب ان ما وريتك عيال أولاد عيال
دخل أبي تحت السرير وأخذ يزيح الحاجات والصمت غطي علينا وخيال ورق الغاب النازل من السقف يهتز ومواء القطة يزداد شراسة وأبي يعلو صوته: آه يا بنت الكلب
خرج من تحت السرير وقد سقطت الطاقية فظهرت رأس أبي صلعاء وعلى وجهه علامات الانتصار برغم الدم الذي غطى يديه
كنت أنظر ناحية القطة وعروقي متجمدة، شيء ما توقف وجعلني أبدو مذهولاً
وأبي يبدو في شدة الفرح وهو يضغط بشدة حول رقبة القطة وبطنها وهي تصرخ بشراسة وأنيابها الحادة تظهر جلية وعيناي تتراقصان بين التوتياء والزئبقي
علقت أمي الحبل في سقف الغرفة كما أمرها أبي،. وتناثر الرماد الأسود فوق رؤوسنا والقطة تعافر وتقدم أبي من الحبل ومرق رأس القطة من الخية وشدّ بقوة ثم تركه،. تنشد القطة وتتراقص رقصة وحشية بزئير حاد وكلما زاد تراقصها زاد ضغط الحبل، انزوت أمي بجوار الحائط تمسح دموعاً سالت منها والقطة في النزع الأخير ترقص رقصة مسائية حزينة، تعزف لحناً جنائزياً، سيمفونية ألم، صرخ أخي فجاة، همدت القطة وتوقفت عن الرقص. تقدم أبي وفك الحبل ورمي القطة في الخارج وأغلق الباب
قال أبي: هاتي الأكل يا ولية
قامت ووضعت طبق السلطة والجبن وبعض السريس والعيش البتاو الذي برد أمام أبي الذي تقدم وأخذ يأكل في نهم شديد!

عواء

٢٠٠٦ / ٥ /٢

دخل بطريقة غير شرعية إلى ألمانيا ومزق أوراق الهوية عندما دخل إلى شقة خاله د عدلي مكرم الصيدلي المهاجر من أوائل السبعينيات، وظل يعمل لدى خاله في كثير من الأعمال وكلما وجد فرصة عمل خارج الصيدلية قام بأدائه مادام سيكون في أمان بعيدا عن الشرطة وظل طوال فترة وجوده لا يسهر في بار ولا يدخل السينما ويقضي أوقاتًا طيبة في الكنيسة حتى سعي في محيط المكان بالعذراء، وعاش هناك مسالمًا وراضيًا إلى أن حدثت تفجيرات سبتمبر وتم ترحيله وعاد إلى القرية، وبالفلوس الذي وفرها، بنى بيتًا وتم تشطيبه كيفما أراد، لا يعمل ويقضي الوقت في البحث عن عروسة تخفف من حنقه من الفراغ الذي يعاني منه فلا يوجد أصدقاء لكي يسامرهم، ولا توجد سينما أو مسرح أو مقاهي، فقط أن تذهب إلى العمل وتنام إلى اليوم التالي الذي تذهب فيه إلى العمل. روتين يومي مستمر.

حرارة الجو مريعة جعلت المكان خانقًا. خرج وقف على باب البيت وهو شبه يائس من الشمس التي تصب جحيمها عليه، فتح أزرار القميص وبدا صدره في مواجهة الفراغ وأزاح غطاء الزير ملأ الكوز الصفيح المربوط في الغطاء وأخذ يصب على رأسه والماء ينساب ويتكوم تحت قدمه، الملابس التصقت بجسمه فأحس بالعري وتذكر زميلاً له في المدينة الجامعية عندما رأى اهتزاز ثديه تحت الملابس قال له: أنت مخنث؟ بخاصة أنه وسيم ويترك شعره مسترسلاً إلى الخلف فيبدو شبيهًا بالبنات وعندما رد بهدوء: لا.. أنا مش مخنث. سحب يده وتفحصه. وقال دي أصابع أجمل من صوابع فاتن حمامة. هجم عليه بقوة وأخذ يضرب جسمه في الحائط ويصرخ صراخًا متواصلاً قبيحًا حتى أن الولد بكي من صراخه وعوائه المؤلم وليس من الضرب وتكوم على الأرض. ساعتها سكن وابتسم وترك المكان.

أغلق القميص وهو يحس بوخز العيون التي وراء الشبابيك وفوق الأسطح عيون لا يراها، تتجمع وتلتصق وتتوجه نحوه تتفحصه بلا إنسانية. عيون مدمرة تسحقه وتجعله يحس أن الكون غريب وقاس إلى أبعد مدى. دخل غرفته وهو يرى أنه بدأ يفقد الإيمان. أخرج الكتاب المقدس وأخذ يقلب في أوراقه ثم جمع ملابسه ووضعها في حقيبة دون أن يعير البيت أو أسرته أدنى التفاتة، تجول في شوارع القاهرة وتنقل في كثير من الأعمال حتى

انتهى في إدارة سوبر ماركت الأستاذ صبحي اندراوس ولأنه أمين، رقيق يبدو كملاك فقد سلمه مفتاح شقة يملكها في أرض اللواء وزوجه الابنة الأخيرة عنده .. نادية.

صبحي صاحب سوبر ماركت المحبة بحدائق القبة الذي تجاوز السبعين ولم يعد قادرًا على إدارة المحل وليس له أبناء ذكور ترك إدارة المحل وكل عام يقوم بجرده. ويظل طوال النهار في المحل مثل النحلة يرص البضاعة أمام المحل ينظف الأرضيات بريمو يقوم بحصر البضاعة المنتهية صلاحيتها ويتصل بتاجر الجملة لكي يأتي له بالبضاعة الناقصة، وعندما ينتهي من العمل آخر الليل يكون في غاية الإنهاك تمامًا، تقوم نادية بوضع الأكل له والعودة إلى النوم مرة أخرى.. دخل على زوجته التي كانت عارية تمامًا وكان كلما قال لها: قميص نوم يا نادية. ترد أنا بارتاح في عريي كده ملس على وركها واقترب بشفته من بطنها فتنبه على كدمات زرقاء على بطنها، تحت السرة يتجول بعينيه ليرى بيديه كدمة تشبه حفر أسنان، بدا مرعوبًا ومروعًا خرج من غرف النوم إلى الحمام، إلى الصالة، نزع ورقة النتيجة وجد في هامشها مكتوب لأنها إرادة الرب. استكان لأنه مؤمن ويجب أن يكون راضيًا. حتى عن الشرور التي لا تحتمل . لم يفعل شيئًا فقط نام جوارها على السرير يفكر في مصير الإنسان، وهل يملكه الإنسان بالفعل أم أنها إرادة الرب، وما على المؤمن الحق إلا الامتثال؟ وانتهى إلى أمرين أما أن يعذب هذا الجسد الشرير المدنس بالخطيئة، ليطهره ويستمر في الحياة أو يترك كل شيء ويعود مرة أخرى إلى البلد كان الأمران في غاية الخطورة فهو لا يستطع أن يؤذي نملة أبدًا فما بالك بروح إنسانية أما البلد فكارثة تماثل الموت لم يصل لحل حتى انتشر النور في السماء فغادر البيت إلى المحل وظل هناك يقلب في وجوه البشر الذين يعرفهم ولم يصل إلى شيء. كان يريد أن يقوم بشيء فعلا ولكن لم يكن من الداخل قادرا على شيء، أغلق المحل ووضع لافتة (مغلق للاحتفال بعيد الفصح) وفي الصباح ذهب مع الأسرة إلى قرية الأستاذ صبحي في أتوبيس وخرجوا إلى البحر. يلعبون هناك بالكرة في فريقين، لندا بنت المعلم وزوجها عاطف، وإيفون وزوجها رامي، ومريم فكري وعادل جرجس. المباراة كانت جميلة وحامية وفي وسط هذا انتشل نفسه من المباراة ووقف في مواجهة البحر يأخذ نفسه بعمق. يده مفرودة على آخرها وكأنه مطلوب يطلق صراخا اقرب إلى العواء. صراخ تنبه له المراكبي والمزارع وشماس يركب حماره على الجسر والأسماك في البحر والحمير والغاب وورد النيل والنمل والجمال والكلاب، أما أسرة المعلم صبحي يلعبون الكرة في غاية النشوة والهياج دون أن يسمعوا أي صوت أصدره عياد سمعان وهبه.

واقف فوق الكوبري الذي يربط المناشي بالجلاتمة.. مادا بصري هناك بعيد، حيث يقف رجل عجوز على شاطئ البحر، وفي يده خطاف صديء يلتقط به أوراق ورد النيل الغضة، الطرية بجورها البيضاء الناعمة، خيوط دقيقة تغوص في الماء.. الشمس واقفة فوقي ترصدني وأنا مربوط بالنيل.. هدوء غريب ومركب صغيرة تهتز، ينزل إليها طفل صغير ويخرج من جوفها صنارة ويستخرج الطعم من علبة بوية زرقاء مازال له أثر ملتصق بها، أزرق قاتم

السماء نشفت، والإسفلت الأسود لين تحت عجلات السيارات القاسية القلب –امتدت يدي نحو طوبة وقذفتها بقوة تجاه البحر، نساء عاريات السيقان تغسل الألمونيوم وعدد الشاي، ملاعق سكاكين، جلباب ممزق من الجانب، عيال صغيرة تقفز من فوق الأحجار يقتربون من فتحة الكوبري وموجه العاتي وشيء من التحدي يوسم ملامحهم، يطفون فوق الموج وصرخاتهم الرفيعة تنطلق في قوة، رجل يرمي علبة السجائر في البحر: يلعن دين دي سجائر.. دي أوسخ سجائر شربتها في حياتي يترك المكان وهو يسب وقد غطي هدير الموج على صوته

أسمع صوت فرقعات ورد النيل تحت أقدام موظف الري الذي يرتدي بنطلونًا أزرق باهتًا وجاكت جينز مفكوك الأزرار.. فكرت أن أترك المكان خاصة أنني تأخرت ولكن لم أستطع أن أترك صفحة النيل العارية إلا من أوراق ورد النيل التي بلا جذور، ذات الأوراق الخضراء العريضة الممتلئة، ناعمة وملساء، أدرت وجهي تجاه المناشي وسرت عربات ميكروباص تندفع وتدور في الموقف، صغير يجري: اقرأ المساء. ينادي بصوت ناعم تأنس له، يعني لازم سواق ٢١٤ يصمم يرجع من الجلاتمة

وأنا في دوران الكوبري رأيتها قادمة هناك مندفعة بقوة، مفيش فايدة مزقته بإطاراتها الخلفية وسحقته بالخلفية.. عربة إسكانيا تحمل حديد تسليح لشركة قطاع عام، حاول سائق سيارة تيوتا أن يقف أمام العربة تراجع إلى الوراء التصقت الرأس بالإسفلت واندفع بالعربة بقوة فأصطدم بمقدمة السيارة الصغيرة فرماها بعيدا عن طريقه وانطلق السائق المقلبظ الوجه الذي يرتدي سترة زيتية وبنطلونًا نبيتيًا متسخًا ، كان يبدو وحشيًا

نزل سائق التويوتا يصرخ وهو يدور حول السيارة بدا قليل الحيلة

كانت تلافيف رأس القتيل كأمعاء حيوان مبقور البطن.. عجل الإسكانيا غاص بلحم الرج في أسفلت الطريق، قطع اللحم تناثرت ساخنة، عاربة من كل شيء.. الدم يتجمع ويتكون نسيج يتحرك بحرقة أحزان القلب الجاف يتسرب في الشقوق، التجاويف والبرك

المحفورة في الإسفلت، برزت سيدة سوداء سمينة تلبس جلبابًا أسود صرخت: ولدي، ولدي (تذكر أنه في يوم كذا من شهر كذا أقدم حاكم دولة كذا بجز رقبة يوحنا المعمدان وأخذ الدم يفور)

تجمع الناس وحاصروا الجثة تماما، صرخات شفاه.. ضجيج، نظرات مسكونة بالفراغ اللا نهائي.. ابتسمت فتاه عارية الذراعين ثم بكت وكلما طردت ذبابة حطت على وجهها إبطها منتوف، لحمها أسمر وكل ثانية تخبي حمالات الصدر تحت الفستان الأحمر الفج فيم كان يفكر؟ الرجل الملتصق بالإسفلت.. المحاصر بالعيون الشرهة، سائق ميكروباص يسأل: حادثة، حادثة.

- أيوه عربية سكانيا دهست واحد، يا نهار أزرق كل يوم واحد. داس على البنزين... انسابت السيارة على الطريق: الخطاطبة يا أسطى.

- وردان يا اسطي

تقدم رجل في الثلاثين، أكرت الشعر.. له شارب ضخم منحوت وفم واسع يبرز كرشه من بين أزرار القميص الأبيض المتسخ، صوت الأذان، كلب يبول.. رجل طويل عريض ضخم ينادي: واحد مصر إمبابة.

رجل ينسل: الصلاة، الصلاة..

- يا ناس حد يشترى جرنال الأهرام... المسائي... الجمهورية

خلعت امرأة جلبابها ورمته على الأرض، كانت امرأة نحيفة معها مشنة ممصوصة الوجه، عيونها غاطسة.. هالة سوداء تحيط بعيونها، بريق خاص يحتوي تلك العيون البعيدة سحب شاب الجلباب الأسود وفرده على جانب الرصيف.. أزاح الواقفين بحزم، تذكر ساعتها الساحر الصغير الذي يدور في الموالد وتصورت أنها لعبة وأن هذا الساحر الجميل سيلقي بتعويذته وإشاراته وبعدها سيقوم الشاب مرة أخرى وسنصفق له

قرفص على قدميه وأخذ يلم قطع اللحم المتناثر على جانبي الرصيف ثم سحب الرأس السيالة، المرأة بدت تنشج نشيجا خافتا ودموع غزيرة تنز، صرخت الفتاه عارية الذراعين نز الدم من بين أصابعه، غرق الناس في صمت وهو يجمع الجثة قطعة قطعة حتى انتهي ووضع الجرائد فوقها و اخترق الزحام وذهب ينظر إلى البحر ثم ارتكن على سور محازي للنيل ...

تركت الجثة بعد سماع صوت سيارة الشرطة فدخلت محل الفول أكلت سندوتش فول وآخر طعمية وتجرعت كوب ليمون وعندما رأيت سيارة بيجو صرخت: أبوغالب يا أسى. حشرت نفسي بجوار السائق...

أشجار الجازولين والكافور مسجية النيل، الموت ورانا: مين اللي حا يلعب النهارة؟

- الأهلي والمنصورة؟

- حد جاب المساء النهارده؟

شخير مفاجئ انتزعنا.. سرعان ما انفجرنا في الضحك: أنا باين عليا نمت، الصول ابن العرص مضطهدني، قال علشان تعليم عالي، يعني خريج أكسفورد.

أخذ يسب الجيش، والبلد والذي يريد أن يعيش فيها، قال السائق : الهواء يا بني ليه ودان

- إيه الجبن ده

- الجبن القريش ممتاز

كان العسكري يبدو مقهورًا، المساء يدفع أمواجه والنهر العجوز ينسحب مذعورا.. عروق الليل الصلبة تقهره ويتوج سيدًا للمكان.. ياسيد الكون ماذا جنينا في فضائك، نزلت من السيارة وسرت تجاه البيت، الجامع ظهر بلمبات النيون الفجة.. دخلت الحارة حيث البيت يرقد غاطسًا في قلب الأرض بناه أبي في شارع الغرباء عندما جاء من بني سويف وهو صغير وظل يعمل عند المعلم عزيز لفترة طويلة وبعدها تعلم رتق الأحذية، صبور، يعيش وحيدًا، ساكنًا لا يهزه سوى إشارات قليلة حادة، وهزات خفيفة من رأسه، المحل مغلق الآن وهو يصلي المغرب.

أدرت مؤشر الراديو على البرنامج الثاني كان المغني يغني دور: هي كانت فين عنيك يا غزالة خرجت إلى الصالة نظرت من الشباك على السماء التي كانت فيها النجوم بعيدة والقمر محجوب بالغيوم

- يا أخي شفت.. الشحات ابن عبد الجواد الفحام. الواد المجدع فتوة وردان وأتريس وكفر أبو غالب وبني سلامة والحاجر والقطا والصحراء الغربية، اللي قتل اثنين من كبار البهوات ودوخ الحكومة السبع دوخات، البرمجي اللي شرب مائة زجاجة في كازينو السيسي في القناطر وكانت له تربيزة لمكان الصعايدة المعلمين من أسكندرية لحد أسوان ولما الولد سيد القص قال: والله دا حرام وما يرضى ربنا نزل من على المسرح وكسر على دماغه خمس زجاجات بيرة والدم طرطش على المعازيم وغرق الدنيا.

- آه يا أخي... دا واد برمجي وعترة ودمه سخن وبارم شنبه يقف عليه الصقر ملك الشقاوة، اللي علم الخط كله الرجولة والجدعنه دا حتى يوم أبوه ما ضربه كفين على وجهه وقال: يامره شق هدومه لحد الديل ووقف عريان قدام أبوه وشخر وقال: أنا راجل يابا أهوه وترك البيت والبلد ومصر كلها وذهب لليبيا في أواخر السبعينات بعدما البترول تدفق في الصحرا.. وهناك أشتغل في فندق وفي قهوة بيركن عليها كل الأجناس ولما اشتغل في مزرعة استخف بيه الليبي وشتمه، وقال: مصري خسيس ابن كلب..

سلت المطوة قرن غزال اللي اشتراها من سوق السلاح ومزق عروق رقبته واستولى على المحصول وعاد في منتصف الليل ولما عاد مصر استوطن الصحرا وأجر لودر وصلح مساحة كبيرة من الأرض وبنى البيت الموجود حتى الآن ودخلت البيت ست الستات البنت الحلوة بنت المهاجرين خريجة دبلوم التجارة ودفع مهرها ألف جنيه أيام الجنيه ما كان جنيه.

بنت بيضه على حق ربنا وشعرها ليل سايح ورقبتها زى الجمار وسيقانها الملفوفة تنتهي عند القدم بخلاخيل تشخلل لما تتمخطر في البلد، وتستفز رجولة العواجيز الجالسين على المصاطب، العاطلين موظفي الوحدة المحلية وكوادر الحزب الوطنى.. الفلوس نهر جارى والسطوة على البشر تزيد والحياة تمر في رغد من العيش يصحا في آخر النهار يقوم يشرب خمسين حجر حشيش وكيلو ونصف لحمة متخدع في بصل وثوم وطماطم وعندما ينتهي من الأكل يقضي وطره، ويقضي المصالح التي تتشعب باستمرار

هذا الرجل الذي تتصوره رقيعًا عندما يرتدى الجلباب الأبيض ويسرح شعره على الفرقة والسيجارة المارلبور في فمه تاجر مخدرات وبلطجي جامد زارع في قلوب الناس الخوف والرعب

هذا الرجل وجدوا زوجتة سكرانة طينة وعارية في الطريق الصحراوى في سيارة غرباء

لقاء

كنت في انتظارها في نفس الميعاد من كل أسبوع، في غرفتك الكائنة أعلي البناية الشاهقة التي استأجرتها حديثا على أطراف المدينة تحيط بك الزراعة من كل جانب تقريبًا، وإن كان ذلك يؤلمني في شيء، فالعزلة مصدر فرح بالنسبة لي ولكن غيبة الأشياء الضرورية والانسحاق المريع في العمل كسر روحك.. الغرفة مطلية باللون الأخضر، لون غريب إضافة لكون الغرفة عارية من الأساس فبدت شديدة القبح، خلعت ملابسك وارتديت بنطلون بيجامة مخطط بخطوط طولية سوداء وبيضاء عريضة من الكستور، وجلست بالفانلة الحمالات وارتميت على السرير الصاج، نظرت للساعة وأحسست بالبرودة تغزو جسدك، التففت بالبطانية، سمعت صوت على درج السلم أدخلت المفتاح الموجود معها في الباب دخلت، قمت وسلمت عليها: مساء الخير..

لم تلحظ تغيير تسريحة شعرها، جلست إلى جوارك، بدا وجهها لامعا وعيونها تتوهج.. كانت تلبس بنطلون جنز وبلوزة بيضاء وجاكيت من الجينز... لم تر التفاف ثديها، ولا الأحمر القاني في شفتيها قالت: بعت لي جواب اليوم ويقول إنه يحبني وبيموت فيا، حاولت أن تقول شيئًا لم تجد، حرت ونظرت إلى السقف، قلت لما تمشي سأحل لمبة الكهرباء المغبرة من بصق العصافير وأقوم بتنظيفها جيدا حتى تكون الإضاءة أكثر قوة

قالت: كان الجواب معطر ومنثور عليه ورد، ورد حقيقي لكن جاف مسحوق.. وكاتب فيه أني أجمل واحدة في الدنيا وإنه مش قادر يعيش من غيري

قلت: دا مش أول جواب بعته ليكي كان الكلام ده في الخريف

قالت: أنا مش فاكره حاجة زى دي

زاد الصمت وتكاثف وبدا ثقيلاً ومعتمًا، التقطت الشنطة وضمتها إلى صدرها وقالت: انا ماشية ويمكن أجي الأسبوع الجاي

لم يرد، أغلقت الباب وراءها بعنف وسارت

بخار الغضب

وهو يفتح الباب أشار لأخيه وقال: أبونا باين عليه مات خلاص... أزاح الراقد في ركن غرفة الخرق التي يتغطى بها فظهرت عيناه الصغيرتان اللتان ترقدان في غور داميتين، كانت النظرة وكأنها رصاصة استقرت في ذهنه فظلت هذه العين تخايله وتضغط على روحه، لم ير عين بتلك القسوة والمرارة أبدا.

سار في الطريق وحيدا يلبس قميصًا من الدبلان يصل إلى ركبته ووجهه المربع لفحته أمواج الشمس اللاهبة، وكأنه كان يحبس الرزق فبعد الموت تدفق الرزق بلا حدود أو آخر:

جلد وجهه مهترئ يسير مندفعًا تجاه الموت الراقد أمامه بعرض الكون.. اخترق صفوف المقابر حتى وصل إلى مقبرة أمه تأكل جدار المقبرة برشح المياه الجوفية، خلاء، حوض صبار ناشف، اقترب من عروق الصبار، وجذب فرعًا وأخذ يستحلبه في بطء: هل جفت الحياة؟

استغرق في التفكير حتى انسكب عليه ظل طويل، نظر إليه وقام زاعقًا: أنت إزاي تقول الكلام ده عليا

قال الذي يلبس جلبابا كوريا ماركة الوردة المائية: طيب أنت تصدق أني ممكن أخونك؟

حاول خلالها أن يبتسم فخرجت ابتسامة صفراء: لم يدخل أحد غيرك بيتي... كان يرتعش وعلى حافة السقوط من التوتر والضعف... حاول التماسك بمسكه من ياقة جلبابه بقوة وكأن هذه المسكة تحفظ توازنه فبدا أكثر تماسكًا: سيب. حاول أن يتكلم ولكن نهيق الحمار بدد صوته في الفراغ... ترك يديه تسقطان جواره فبدت الجلابية مطبوع عليها أصابعه الوسخة

مين بس اللي قال الكلام ده، مسح بطرف الكم الدموع التي تنز، ظهر حمار أسود يطارد حمارة حتى حشرها في طريق مسدود فاستسلمت بقفز الحمار عليها وغرس أسنانه في رقبتها

قال الذي بوجهه حب الشباب: يله بينا.

سارا بين المقابر، ثم قال الأبيض ذو الشعر الأملس إيه رأيك وأشار إلى مقبرة فوهتها ما تزال طرية: ضيف جديد

قال وهو يضغط على البثور بقوة حتى انفجرت ونزت دمًا وقيحًا وسائلاً أبيض

:هل تتصور أنه بين الملكين يحاسب

قال الأبيض لا أدري وبرقت عيناه

كان النقاش محتدمًا حول هل مات المؤلف بالفعل؟ أم أن هناك أملاً في إنقاذه؟ وعندما هم الناقد الكبير بفتح فمه كان صوت عامل البوفيه يهمس في أذنه جاهد لثقل وزنه في الدوران ليكون في مواجهة النادل، وعندما استوعب الرسالة ترك الحلقة النقدية في عجالة، واندفع في قوة تجاه الباب الخارجي لأتيليه القاهرة...

أطل على الشارع لم يجد أحدًا عاد لاهثًا باحثًا عن النادل الذي وجده يصب القهوة لفنان تشكيلي شهير ومشهور بشدة تأنقه مع أن هذه الأناقة لم تشفع له عند ربة الفن لكي تلهمه إلا الخواء الذي يطفح من على سطح اللوحة، انتظر حتى انتهى واستغل فترة الانتظار المضجرة بمرمغة المنديل في بحر عرقه الذي ينز هربًا من كرش يحوي كمًا مريعًا من الدهون. عندما رآه النادل أشار وسبقه حتى انزوى في نهاية المستطيل المخصص للندوات الشعرية والقصصية التي شهدت تاريخًا عامرًا بالمنازلات النقدية، إلقاء القصائد العصماء والقص بعيد الأغوار (ليس هذا موضوعنا لم يأت النذل ابن النذل) فعاد وجده في غرفة عرض اللوحات خارجًا بكوب فارغ وقف في مواجهته فتراجع، تأمل بعض اللوحات التي كان يجدها فقيرة تستلهم تيارات ومدارس غربية معينة وتفتقر إلى أي خيال، مشنوقة في إطار من الخشب لم يركز في شيء رغم بحلقته في اللوحات حتى توقف تحت المكيف فجف العرق، ابتسم ونظر إلى النادل وأشار إلى اللوحة وقال:

دي أجمل لوحة في المعرض

وأشار إلى التكييف ساخرًا وضحك، ثم اقترب من العامل، ووقف في مواجهته وهو يمسك يده بيده الأخرى حتى يوقف رعشة يده الذي لم يستطع أن يسيطر عليها وقال: مفيش حد موجود بره

قال: إنت عارف يا دكتور، أنا اكذب ليه؟

قال: قلت شعرها طويل أسود ووجهها مدور

- فعلا

- ماكياجها خفيف صح.

- الشفايف لونها إيه

- لون التوت

- لون التوت!!

أخ. وضع يده وراء ظهره وأخذ يدور على اللوحات ثم توقف، بدا يعرق ولم يعد قادرًا على الكلام: كانت لابسه إيه؟

- فوق بادي

- أبيض

- فعلا حضرتك أكيد عرفتها.
- والبنطلون
- رمادي
- عذرا ولكن ترتدي سوتيان
- البادي على اللحم كان جسمها باين خالص يشف عن ثدييها اسمح لي وذراعها أبيض زى الفل
زاد توتره بشكل عنيف : مقالتش رايحة فين
- دا مش دوري يا د. ... تسمح لي
خرج تذكر أنه يحضر ندوات حزب التجمع... كافح وهو يصعد الدرج، حتى أصبح في مواجهة لافتة الحزب التي قرأها حزب التجمع الوطني الديمقراطي الوحدوي، خلع النظارة وأخذ يقترب من اللافتة التي كانت مهمة... فيه إية؟ الخوف أدخل مكتب رفعت السعيد أجد كمال الشاذلي... أخذ يدور لعله يجدها لم يجد أحدًا نزل الدرج... حرم من أن يدلي برأيه في الموضوع، هذا المؤلف اللعين لا يكف عن المراوغة... أخ لعلها ذهبت لمطعم أسماك النيل مكاني المفضل في الأكل ذهب لم يجد أحدًا ولكن وجد ديوان شعر مهدى من شاب، حمل الديوان وسار وفي انحرافه تجاه ميدان طلعت حرب سقط منه الديوان، تركه وسار تجاوز السيارات الواقفة حتى أصبح تحت تمثال طلعت حرب وقف ينظر بقلق بالغ في كل الاتجاهات.

في نهاية شارع السهراية حيث بعدها يمتد أمام العين مساحة هائلة من الصحراء الصفراء القاحلة والمقابر وجنائن المانجو المخيفة يرقد بيت متهالك توارثته أسر لا تحصى وإن كانت ظلت تضمر بفعل أشياء كثيرة مثل الموت والهجرة والجنون وصفصف هذا الكيان الخرافي على السيدة التي لم تنتبه إلى كونها وحيدة إلا بعد أن فاتها سن الزواج فقررت أن تتاجر خاصة أن الحيل التي وفرتها الطبيعة لها لم تعد مجدية فقد ظلت لفترة طويلة تدبر حاجاتها بالبيع في البيت من خشب قديم وحديد وطلمبة وغيرها إلى أن سلتت حديد الشباك فقررت أن يظل البيت كما هو حتى تموت، الشباك مغلق، ومرسوم على الباب جمل والباب مصنوع من الخشب الثقيل ومغروس به مسامير صدئة ومبطوشة في خطوط متوازية. الأرضة غرست مخالبها في الباب الذي يستند إلى حجر ضخم، كانت جميلة في غاية البهاء ويبين عروقها شجر في جسدها ويحكى عنها أن رجلاً وكان فتوة اقتحم عليها المنزل وأراد أن يضاجعها بالقوة..

وضع قدمه على الشباك وصعد على السطح.. ونزل على السلم المغروس فى وسط البيت وعندما أزاح عنها الغطاء والمطواة مسلطة على رقبتها.. قامت عينها تلمع فى العتمة. :عايز أية يا فلان؟ ومسكته من كتفه وأخذت تهز فيه حتى سقط على الأرض وبعدها وجدوها فى الشارع متزوعة الجلباب في قميص نوم شيت مزهر ويظهر لحمها والواد سيد يدق على الطبلة بقوة وهي تشخر كأمرأة لبؤة تنادي سيدًا ما.. وعندما مر رجل عجوز ضربته السنون وسقطت أسنانه وقال: أب عليه الطلاق دي عايزه واد يكون شارب من لبن أمه يوزنها ويرجع عقلها الضارب.

لم يلتفت أحد لكلامه خاصة أنه شخص قليل القيمة لا يمل مطاردة زوجات أبنائه حتى اتفق الأبناء، وتدبروا أمره بعلقة تمام بعدها دخل الجامع وصلى صلاة الظهر، وأظهر علامات الورع بعدما ترك السبحة تفلت من يده وبالغ في ذلك وإن كان يحن للوساخة فيزنق امرأة في حقل ذرة او يجري وراء بنت، ثم حاول أن يبعد الملتفين حولها ولكن دون جدوى فقد كانوا مأخوذين مسحوقين تحت وطأة حضورها ولم تتوقف حتى سقط سيد من الإعياء وهي إلى جواره حاولوا خلالها أن يرفعوها من الأرض أبدًا. وظلت هكذا حتى قامت فجأة ودخلت البيت ولا أحد يعلم ماذا تفعل داخل البيت تنادي وأنت تسمعها وهي تصلي.. دون أوان الصلاة

خالة سيدة.

ترد على طول.. لو حد عيان تدخل. لو حد مربوط موجودة. خالة سيدة ، كباية شاى، حاضر، فص ثوم، زهرة. تدخل كل الأشياء موجودة فيه الطماطم مشابك، خضار طبيخ بايت، جبنة، مش في صحن صناديق ببسي فارغة ترابيزة. اليوم كانت قلقة وكانها مهمومة

تدخل ثم تخرج ثم افترشت وسط الدار ونامت وبدا شخيرها ينتظم ثم قامت فجاة ونظرت إلى السقف وجدت ثعبانًا ضخمًا، أزرق يزحف على الخشب ثم يسقط بالقرب منها ... هل صرخت؟ وقف الثعبان على وجهه في مواجهتها وعيونه تشبه عيون إنسان.. تلمع فى الظلام وتطلق شررًا مخيفًا .... متجمدة كانت. لم تفعل شيئًا سوى أنها رأت ملائكة تطوف حواليها وتضرب بأجنحتها الأسطورية في الهواء.. زحف الثعبان على جسدها فابتردت.. زحف حتى تجاوزها فأوغلت في الصمت والابتراد حتى اكتملت برودة وتوقف انتظام دقات قلبها.

مر يوم والثانى والثالث والرابع ضربت فيه الطماطم وتعفن الطبيخ واندفع الدود من الجوافة وتهتك الجسد والرائحة تملأ المكان وتتصاعد حتى اكتمل البيت رائحة وفاض فخرجت للشارع في قوة

- مات.. عبدالوهاب بن عبد التواب الفحام ...و روحية مرات ابنه فهد كانت بترقع كل صوت يجيب آخر البلد ...
- أنت رايح فين يا كبير.. هو مش غالي عليكم.. سيبونى.. والواد فهد كان زى المجنون.. ويلف على الناس ويقول: أبويا مات.. أبويا مات خلاص..... ومحمدين الكبير شق هدومه وطلع من دينه وبقى يجعر زى الفحل ومراته أغمى عليها وجابوا لها الدكتور عبد الستار.. وقال سليمة.. وابنه المتعلم فى الهندسة اللى ما نزلش اليلد من سنين وأول ماجه قال: أدخل معاه... أبويا يا ناس.. ما فيش رحمه.

وأكابر البلد وأعضاء مجلس الشعب والشورى والعمد حضرت الجنازة.. ورشوا ماء ورد على الكفن ...وأقاموا صوان وأتى مقرؤون من الإذاعة وتدفق ناس من البر كله

٢

في آخر أيامه كان يسير شبه مخبول فى الشارع الى ان وقع فى بركة ميه عطنه ولما رفعناه لقينا ريحته زفره وجلابيته الكشمير اللى كان بيتعايق بيها في الأفراح بقت زى شبكة صياد معدم وراحت وسامته، الغندور لم يكن أحد يصدق أنه كان نائب العمدة ايام ما كان العمدة عمدة(واللى يلبص يتعلق من رجلية لحد ما يقول إن الله حق) ولما كان يمشى فى البلد يا أرض أتهدى ماعليكى قدي) وهو راكب الحصان بيلف حول الجناين والدم يطفح من وجه ولما مات العمدة ورشح للعمودية وسقط في الانتخابات أهتزة وبان عليه الشرود لمدة طويلة حتى انه لم يكن يتابع ما يدور حوله من حديث، ولا يشارك في شيء يظل جالسا صامتا رغم أنه لم يحدث تغيير يذكر فالأعوان موجودة والخباصين والاجربة والمنافقون والأرض والسيارات النقل والملاكي ونفس الاحترام ورغم ذلك شيء تسرب منه أحسه وتجاهله وكأن الأمور ما زالت قائمة كما كانت، تغاضي عن أشياء لا يمكن أن تحدث قبل ذلك مثلا ان يمر أمامه رجل يلبس جلباب جديد أو صديري أو لا ينزل من على الحمارة عندما يراه، أو يتجاهل أحد أن يلقي عليه السلام كانت هذه الأشياء رغم بساطتها من المحرمات ويذكر أنه رأى بالصدفة فلاحًا يلبس صديريًّا فتم خلع الصديري وحرقه أمام الناس، فما بالك بمن يسير أمامه الأن وهو يدخن أو يضع قدما على قدم؟ انعزل تمامًا وتوقف عن الخروج وأصبح عالمه محصورًا ما بين البيت والخروج للجلوس في الحديقة أو يجمع الإيجار حتى ترك كل ذلك للأولاد بعد ذلك واكتفى بحق الدخان الذي أصبح المتعة الوحيدة الباقية، يشرب في نهم ولا تنقطع السيجارة من يده إلا في أثناء النوم القليل، وحتى عندما ينام يفزع مرات كثيرة يقوم من النوم، يشرب ماء ويغسل وجهه ويدخن سيجارة ثم يعود مرة أخرى للنوم، وحول حياة الطاهرة إلى جحيم

بسبب طلباته التعجيزية وتصميمه الطفولي حتى إنه خرج عليها بسكين وكان يريد قتلها وعندما جاء أخو الطاهرة ليأخذها عنده بكت وقالت أنا أم الرجالة مينفعش أسيب...

٣

ضرب في دماغه وصراخه جاب آخر الشارع والواد فهد سلت الشبشب وقال: إن ما سكت لأنصر الشبشب على وشك

والناس تتحصر على الرجل اللى انسعر والجبروت اللى راح والقنديل اللى انطفأ وعلى أيام العز اللى راحت وجسمه اللي اتفتت وناقص يطلع منه الدود ولم يبق جواره سوى الطاهرة وفى آخر يوم زعق فيما يشبه العويل أشار لهم بعينيه الذئبية فحملوه وساروا بيه في اتجاه عينه نزلوا من البهو الرئيسي الى الممر المؤدى إلى غرفة السلاحليك بحثوا عن المفاتيح لم يجدوها فنزعوا الرزة بالفأس وزيك الباب وتطاير تراب ناعم أقعدوه على المصطبة بعد أن فرشوها بالسجاد وتركوه كما أراد وعينه تتلفت في غرفة السلاحليك الفارغة ومكان البنادق الخاوى والعنكبوت الذي يفترش السطح الزجاج المكسور والكرباج على جلود الفلاحين، نظر إلى يديه هنا خططنا للحرق والقتل ....

تنهد ..

- أبويا مات والثورة قامت وأممت ٢٠٠ فدان وبقى مئة فدان وبدد الأولاد الباقي فى شرب الحشيش والدعارة.. كله راح

الراحل المعطوب فى الصميم رأى أباه يسير في الطريق وكلما رآه الناس فروا مرعوبين من الكرباج الذي في يد الأب راكب الفرس والواد عكاشة يسحبها في خضوع وذل والأعيان وكبار الملاك يسيرون وراءنا مطأطئي الرؤوس.

الرجل روحه اتخطفت وجسمه ضرب بالبرودة ونطق فجأة بأعلى صوته: يابا.. ومات

الأشياء

سار في شارع محمد فريد سارحًا، ناظرًا بدهشة نحو وميض الأضواء اللامعة التي تصطدم بالإسفلت وتنشطر في الفراغ، والسيارات تمرق جواره في جرأة واقتحام مريب.. أحس ساعتها أنه صغير ووحيد في تلك المدينة المرعبة التي تأكل العمر في قسوة، تأكل الأحلام دون رفق.. دون هوادة.. واقفا في وسط الشارع بين البنايات الضخمة والمحلات المشحونة بالآلات الكهربائية، سانيو، تليمصر، توشيبا، ثلاجات، غسالات حقائب جلد.. شرابات، قمصان، فساتين، إعلانات تومض في الفراغ.. دائما رغم تركه البلد منذ فترة طويلة ما زال هو كما جاء أول مرة كلما سار وسط القاهرة وسط هذه المباني العالية وسط جيوش النمل التي لا تكل يشعر أنه تائه وأن مصيره السقوط في بالوعة المجاري ويموت، هذا الرجل مدكور الكهل الآن ورث عشرة أفدنة وبيت من دورين وسبع رؤوس من الماشية وحصان ومهرة تصهل في الفراغ.. باع كل شيء واستجاب للقاهرة النداهة التي تصور أنه سيسحقها تحت قوة رغباته ولذائذه ولذلك اندهش عندما دخل قهوة السلام كالعادة واصطدم وجهه بالمرآة وهو يلعب الدومينو في حماس هائل، توقف عن الضحك وانسحب من الصحاب ولم يدفع وصورة وجهه مطبوعة أمامه، التجاعيد غزت وجهه وتساقطت أسنانه واختفي شعره الأسود تحت سطوة الأبيض وعيونه بددت.. وانحني ظهره وبدا يسعل بشدة.....

لقد سرقت.. قالها ذاهلاً. من سرق عمري؟ من سحب الأحلام من تحت قدمي؟ من جعلني أحارب في أرض غير أرضي؟

يسير بقوة وعروقه تنتفض. من أمسك مدية وسار ورائي وبيده القوية الملعونة وضربني في الصميم، ضربني بعنف حتى أفرغ مني ذاكرتي وجعلها نهبًا للغربان والبوم، التي بدت الأحلام واستهلكتني، لا يمكن أن أسكت.. عمري يتآكل مني.. ينحدر إلى الهاوية، يجب أن أوقف كل هذا.....

صرخ في وسط الشارع يجري بين المارة والسيارت ولا يبالي بسبب أصحاب السيارت يبحث بقوة عن صورة جميلة انطبعت في ذاكرته

حلم

(١)

ربط بطانية قديمة بحبل من تيل، وقبل يد الأب، بكت الأم وحاولت الابتسام ولكن لم تستطع وحمل كيس نايلون به بعض ملابس داخلية وبيجامة من الكستور، خرج من البلدة وهو يحاول أن يؤهل نفسه للعمل في مهن حقيرة، ليس هناك طريق آخر . عليه

أن يحتمل برد الشتاء القاسي خصوصًا أنه سينام على سطح العمارة في غرفة معرشة بالغاب، والهواء يضرب فيها بعنف فتتحول إلى ثلاجة والبطانية خفيفة.

(٢)

في اليوم الأول والثاني لم يعرف النوم قلقًا، والثالث نام تعبًا ورأى نفسه يضاجع إحدى الفتيات تحت كوبري إمبابة وكان مرعوبًا أن يراه أحد خاصة أن صلاة الجمعة كانت قائمة، والخطيب يتوعد الزاني والزانية وكأنه يراه ويصف ما يجري، وهو لم يعد راغبًا في ممارسة الجنس فقط، يريد أن يقوم رغم عدم إمكانية القيام بالمطلق وكأنه التصق بها بلاصق، وعندما استطاع القيام كانت التي تحته تئن وتتوجع، قام فزعًا، وصوت المطر يرن على البلاط والصواعق والرعود تهز الكون قام وهو يئن من التعب والبرد يضرب عظامه أحضر الحلل الخشب الموجودة في الغرفة ورصها على جسمه وتركها ونام دون دون حركة واحدة.

عصفور

طفل صغير مقعد يعيش وحيدًا، ويحب العصافير، كان يريد أن يكون له مجموعة من العصافير يربيها في قفص، ولكن لم يساعده أحد، الولد سيد ابن انشراح يصيد العصافير بالنبلة ويقتلها كان صياد شاطر يضع الظلطة في النبلة وينشن تك تكون العصفورة في الأرض مرمية ومفصول رأسها عن جتتها، أما هو فينشن فلا تصيب بل تبتعد مسافة بسيطة وتسقط وتضحك العيال فيه إيه؟ بكى أنا عايز عصفورة؟ عصفورة مش مهم تكون كبيرة أنا عايز عصفورة وخلاص، تركت أمه الذي في يدها وأحضرت له فرخ البط الصغير وناولته له

- العب بيه شوية أوع تؤذيه

- حاضر

جفت دموع الولد القعيد، وأخذ يلعب مع فرخ البط يتركه الفرخ يسير ثم ينقض عليه ويمسك به، ويضحك يزحف وراء الفرخ ويحثه على السير، اجرِ.. اجرِ يا عبيط أنا همسكك، اجرِ، سرعان ما يمسك الفرخ ويقبض عليه بكف يده والفرخ ريشه ناعم وجميل ومستكين في يد الولد الذي سمع صوت زقزقة عصفور يأتي من مكان ما من الغرفة، أخذ يلتفت هنا وهناك.. آه.. هناك في نهاية عرق الخشب، ينتقل برشاقة من عرق إلى آخر، إلى سلك اللمبة، أغلق الغرفة وفكر في اصطيادها بالنبلة، لم ير شي، فتح الباب مرة أخرى ورقبة المقعد منتصبة نحو العصفور وهو يفكر كيف يمسك النبلة وينشن تك، ويفصل رأسه عن رقبته، يضغط بقوة على فرخ البط ويتخيل العصفور ملقى أمامه ينازع الموت، طار العصفور وتنهد " المرة القادمة لن تفلت " نظر إلى يديه كانت مخضبتين بالدم

لم يجد أحدًا في البيت، أغلق الباب ودفع الكرسي المتحرك تجاه غرفته بغضب فاصطدم بقطعة خشب فالتوت العجلة الأمامية وفقد التركيز فسقط على الأرض وقد جرحت يده ورجليه من الكرسي المتحرك، ظل صامتًا لفترة منكفئًا على وجهه كابسًا مكان الجرح بيديه حتى توقف الدم عن النزيف، زحف على يده جارًا قدمين صغيرتين مفتولتين، ارتفع بجسمه عن الأرض وحضن السرير وضغط بذراعه فارتفع نصفه الأعلى فارتمي على السرير سحب بيديه رجله المعطوبة وتمدد على السرير، خلع بنطاله، وتحسس ركبته وكأنها قدم ميت.. تحسس ذاته وشعر عانته ثم انتزع الشعر بقوة، سحب العكاز وبقبضته القوية، ضرب الزجاج فسقط قطعا صغيرة متناثرة ودخلت الشمس قوية لم يحتمل أشعتها فانزوى في ركن، لم يحتمل الظل، زحف على قطع الزجاج المتناثرة بلا مبالاة وصعد في مواجهة الشمس راكسًا بذراعه على حافة الشباك تاركًا نصفه الميت وراءه ونظر إلى السماء وصدره يرتج من الغضب.. امتداد من حقول الفول الأخضر تأخذ مساحة واسعة من الأرض، دموعة كادت تفلت منه، لماذا تلاحقني؟، لماذا لم أستطع تحقيق شيء طوال حياتي هل العجز الجسدي قهر روحي وسحقني؟ أم أن بذرة الهزيمة داخلي وحدي، فكثير مثلي يمارسون حياتهم طبيعيًّا وينجحون ولكن أنا الوحيد في هذا الكون الواسع الضعيف، وخائب الرجا، أنهمد على السرير، ملاءة مبقعة، ساق حديدية، كتب ممزقة، مجلات بها صور قذرة وممارسات شاذة، نزل من على السرير وأعاد الكرسي المتحرك إلى وضعه الطبيعي وقفز عليه بقوة ذراعه فاستقر عليه وبدل بيديه تجاه الباب، فتح الباب، فضاء صحو.. خلاء.. ترك الباب مفتوحًا وسار وسط الحقول باتجاه البحر، لم تستطع مساحة الخضرة أن تحد الغل الذي في قلبه تجاه الحياة وتجاه ذاته وصل إلى حافة الجسر، ونزل بهدوء المنزل حتى وصل إلى شاطئ البحر، امتداد البحر أمامه شاسعًا وأمواج البحر تتدافع في هياج.. نبات ورد النيل الطافي على سطح البحر يتأرجح.. جزيرة صغيرة تبصق في وسط البحر، لو أستطيع أن أعوم حتى أصل هناك، الجزيرة الصغيرة يضرب فيها الموج بقوة وعنف وهي لا مبالاة، أما من نهاية؟ نظر إلى مساحة المياه الممتدة أمامه فتسرب إليه فرح، أخذ يزحف على الشط والملابس تبللت فخلع ملابسه وركنها على الشاطئ، وأخذ يعوم في المياه الضحلة، وجد قاربا قرب الشاطئ تقدم كتمساح صغير يده الكبيرة تبطش وتغوص في الطحالب وورد النيل والغائط الأزرق إلى أن وصل إلى القارب الصغير حاول أن يصعد ولكنه فشل، جرجر القارب بقوة حتى غرسه في الشاطئ واستخدم المجداف سلمًا إلى أن امتطى القارب، تذكر الأب والأم ماذا يفعلان الآن؟ هل يفكران فيه، .. طبعًا، وعندما لم يجد أحدًا على امتداد الشوف تشجع وغرس المجداف في الرمل ودفع بقوة فانزلق القارب في البحر،

أخذ يجدف حتى تعب فترك القارب للموج، وأخذت مشاهد حياته البائسة تمر أمامه حتى نسي القارب تمامًا، وعندما تذكر كان القارب قد ابتعد كثيرًا عن الشاطئ، أحس بالخطر، أمسك بمجداف القارب، وأخذ يحاول العودة مرة أخرى، وبالفعل سيطر على القارب وأخذ يجدف ضد الريح والتيار العنيد يقاوم بصلابة.. بدا التيار يجرفه لم يعد مسيطرًا على القارب تمامًا والموج يسحبه ويدور به، حتى تعب، بدا مرعوبًا ومذهولاً والمركب تتجه بقوة نحو مسار لا يرغب فيه، ترك المجداف والدوامات القوية والموج العفي يضرب حتى امتلأ القارب بالمياه وبدا يغوص وهو ساكن لا يتحرك القارب ودموعه تلمع في ضوء الشمس.